مُصدقًا لما بين يديه وهدًى وبشرى للمؤمنين

قلم الذكر ٥

يا حافظ سورة البقرة ... وماذا بعد؟

رشف الشكر

من سورة البقرة

تأليف

توفيق بن خلف بن عبدالله الرفاعي

رشف الشكر من سورة البقرة

اسم الكتاب: رشف الشكر من سورة البقرة
المؤلـــــف: توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ-٢٠٢١م

الصف والتصميم والإخراج:

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

حولي- شارع المثنى- مجمع البدري
الدور الأرضي- محل ٢٩
هاتف: ٦٩٦٠٠٤٤٤

يا حافظ سورة البقرة

وماذا بعد؟

رشف الشكر من

سورة البقرة

تأليف

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

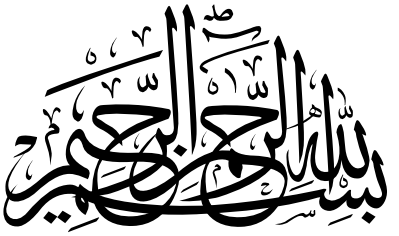
بسم الله الرحمن الرحيم

رشفٌ من العنوان

قال حافظ سورة البقرة[1]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

اللهم لك الحمد على المِنَّة بالحَظْوة بسنام القرآن... اللهم لك الحمد على هذا الاكتمال وهذا الختام، ربنا لك الحمد على هذا المقام بين الأنام راجيًا به خير مقام حين يكون بين يديك القيام. حمدًا كما ينبغي لجلال وجهك الكريم وعظيم سلطانك.

الحمد لله الذي جمع في صدري سورة البقرة بأكملها؛ وهي الجامعة لأعظم آي القرآن العظيم، ولختامها نزل الكنزان من تحت عرش الرحمن.

الحمد لله الذي وفقني لحفظها بعدما أيست مِنْ قبل، ومكَّنني فجمعتها في صدري بعدما كَثُرَ نسياني من بَعْدُ .. وقد غادر قلبي - بذنبي - الكثير مما حفظت.

الحمد لله الذي خَصَّني بصحبة السورة الكبرى من القرآن؛ وأي صحبة ومصاحبة وملازمة والتزام والتصاق مثل التصاق المحفوظ من كلام الله بحافظه طوال رحلة حفظه وتعاهده.... فإذا بها صلةُ أهليةٍ انطلقت من هذا اليوم إلى لقاء الله في ذلك اليوم العظيم، ألا إنها سورة صناعة الشكر عملًا دائمًا وعهودًا صادقة .. وذكرًا لله صاعدًا .... وذلك في كل وقتٍ من المؤمنين الحافظين لله رب العالمين قيامًا وقعودًا، وركَّعًا وسجودًا.

(١) وحافظ القرآن كذلك .. فهذا الكتاب للاثنين بإذن الله.

رَشْفَةٌ أُولَى:
لماذا «الرشفُ» و«الشكرُ» معًا؟

قال ابنُ منظورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لسان العرب: «رَشَفَ الماءَ والرِّيقَ وَنَحْوَهُمَا يَرْشُفُه ويَرْشِفُه رَشْفًا ورَشَفًا ورَشِيفًا.

والرَّشْفُ: المَصُّ، وتَرَشَّفَه وارْتَشَفَه: مصَّه، **والرَّشِيفُ**: تَناوُلُ الْمَاءِ بالشَّفَتَيْنِ، وَقِيلَ: الرَّشْفُ والرَّشِيفُ فَوْق المَصِّ، وَقِيلَ: هُوَ تَقَصِّي مَا فِي الإِناء واسْتِفافُه، وَفِي الْمَثَلِ: الرَّشْفُ أَنْقَعُ، أَي: إِذَا تَرَشَّفْتَ الْمَاءَ قَلِيلًا قَلِيلًا كَانَ أَسْكَنَ للعَطَشِ، والرَّشَفُ والرَّشْفُ: بَقِيَّةُ الْمَاءِ فِي الحَوْضِ، وَهُوَ وَجْهُ الْمَاءِ الَّذِي ارْتَشَفَتْه الإِبلُ، والرَّشْفُ: مَاءٌ قَلِيلٌ يَبْقَى فِي الحوض تَرْشُفُه [تَرْشِفُه] الإِبلُ بأَفْواهها. قَالَ الأَزهري: وَسَمِعْتُ أَعرابيًّا يَقُولُ: الجَرْعُ أَرْوَى والرَّشِيفُ أَشْرَبُ»[1].

والرشف فيه من الخفة واللطافة والسرعة ما يجمع المعاني الكبيرة، والمقاصد التي يعدُّها الناس عزيزة وعسيرة، والعهود الثقيلة سهلة ويسيرة ومتحققة بإذن الله. فكيف إذا كان هو رشف القلب إذ هو المقصود هنا.

فالرشف ليس هو التفكُّر ولا التدبُّر إنما هو ثمرة التفكُّر والتدبُّر .. إنه ثمرة النظر في آيات الله .. إنه عمل القلب المباشر .. إنه حصاد البحث القلبي الصادق، ولذا ربما تدبَّر الرجل وتفكَّر لكن قلبه لم يرتشف نقطة واحدة فيعاود المحاولة مرة أخرى وهكذا حتى يرتشف، وهنيئًا لمن ارتشف بعد ضنى، ونهل بعد علل.

وهذا هو الذي يطلبه هنا كل من حفظ سورة البقرة خاصة ومن حفظ القرآن العظيم عامة .. هذا هو الذي نريد أن تتحرك قلوبنا نحوه لتمارس دورها، ونتدرَّب على حصاد تدبُّرها وتفكُّرها وتعود -بإذن الله- ي كل وقت وحين بذخيرتها للدنيا والآخرة، فلهذا جاء عنوان الكتاب «**رشفة الشكر**».

---

(١) لسان العرب (٩/ ١١٩).

«**رشفة الشكر**» فإنه لما كان للقرآن حق عظيم وهو فضل الله الأعظم على الناس، وكانت الفرحة لا يمكن وصفها على قلوب المؤمنين كافة، فكيف على قلب حافظيه، وكذلك حافظي سورة البقرة، كان لابد من أن نجيب كل حافظ لسورة البقرة: وماذا بعد؟

«**وماذا بعد؟!**» هذا هو السؤال الذي تصدَّر الكتاب وجاء بعد عنوانه الأكبر ليبيِّن أن الإجابة على هذا السؤال هي مقصود الكتاب، وأن أول الكتاب فهم معنى الرشفة، وأن ثانيها فهم الرابط ما بين الرشفة والشكر وأن طريق الشكر الحقيقي برشف القلب، وليس من بحرٍ مثل كتاب الله ﷻ أبدًا، ومن ثَمَّ كان هذا الكتاب مُعَلِّمًا حافظ البقرة أو حافظ القرآن كيف يرتشف بنفسه .. كيف يرتشف قلبه من سورة البقرة شكر الله، كيف يستخلص مراد الله ﷻ .. كيف يُرضي الله ﷻ ... كيف وكيف وكيف ... وكل ذلك مما حفظه من سورة البقرة أو من القرآن العظيم.

إذًا فهنا في هذا الكتاب التدريب على مَلَكَة رشف القلب حتى تنشأ فيه -بإذن الله- فتُنشِئ شكرًا لله رب العالمين. وهنا بيان ميادين رشفة الشكر .. وهنا بيان الطريق إلى ارتشاف الشكر.

وهنا الرشفات الفعلية والتدريبات العملية من سورة البقرة نفسها واحدة واحدة، رشفة رشفة ... وليست هي إلا نماذج عظيمة لبحورٍ زاخرةٍ.

فإن قلت: لماذا الرشفة؟ والرشفة تُفهِم القليل والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]؟

الحقيقة هي أن المقصود واحد فإنه مهما أخذنا من كتاب الله فما أخذنا ـ والله ـ ما يساوي رشفة ولا ما يساوي قطرة.

نعم إن مصدرها البحور الباقية اللامتناهية مطلقًا .. فكل ما يؤخذ بالنسبة لعظمة البحور هو أقل من رشفة، كما ورد في الحديث في قصة موسى والخضر عليهما السلام: «**فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ**

السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ»[1].

الرشفة مهما كانت كبيرة فإنها لا تساوي في علم الله قطرة .. وإلا فإن القليل من الله كثير، ومع هذا لسان حال البحَّاثة عن الرشفة يناشد ربه أن يعينه ويهبه الرشفة وهو يقول:

قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ

وأعظم من هذا قول سليمان عليه السلام إذ حُشِرَ له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، وإذ مرَّ بوادي النمل وسمع نداءها على قومها فما كان منه عليه السلام إلا ما قال الله ﷻ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩] كل هذا استجاب الله دعاءه وآتاه مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده إلا أنه بالنسبة لما عند الله ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[النمل: ٤٠] لا يكاد يُذكر، أما فضله وخزائنه فذلك ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى.

الحمد لله على أني حظيت بحفظها، وهي ـ والله ـ الحظوة بسنام القرآن. وهل الدسم، والكنز، والخير موجود في موضع مثل السنام، وهل من رِفْعَةٍ أرفع من السنام .. وهل يكرِم الكريم ضيفه عند العرب بشيء أكبر من البعير، وهل من شيء في البعير أكبر قدرًا من السنام؟!

وهل السنام في أي شيء إلا أعلاه وأغلاه؟

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٢).

رشفةٌ ثانيةٌ:
وماذا تعني رشفة؟!

كل رشفةٍ حقٌّ من كلام الله العزيز فوز .. كل رشفةٍ فتح .. كل رشفةٍ نور .. كل رشفةٍ هدى، كل رشفةٍ رحمة، كل رشفةٍ عهد جديد .. كل رشفةٍ خطوة جديدة .. كل رشفةٍ شحنةُ طاقة في سفينتك العابرة برحمة الله ورعايته ليلها ونهارها حتى تدرك مرامها ومرساها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١].

فارشف أيها الحافظ ثم ارشف وارشف .. ولا تزال هكذا .. فوالله لربما رشفة واحدة من كلام الله أغنت عن كل شيء طوال حياتك ... كيف وأنت قد أصبحت الآن واقفًا على ساحل أعظم البحار لكلام الله ﷻ ، وقد قال الله ﷻ فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٞ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٖ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

حقًّا إنها رشفة لكن معينها حاضر وعينها حاضرة إنها من آيات الله، وكلماته .. فليست هي من تعبيرات الأدباء، ولا إيمانيات الروحانيين والزهَّاد، ولا هي أفكار فلسفية، ولا هي شفرات سرية .. إنها رشفات من سورة البقرة.

فإذا استصغرتْها نفسك لأنها «رشفة شكر» فَلْتعلم أن رشفة نور من كلمات الله تضيء جوانح الصدور، وتطرد ظلمات النفوس، وتسلِّم القلوب من آفاتها.

ورشفة واحدة من عيون سورة البقرة ربما بدَّلت حياة عبدٍ عَجَزَتْ كل طرق الإصلاح عن إصلاحه فبدَّل بهذه الرشفة سيئاته حسنات، فانقلب حاله بتلك الرشفة من القُمامة إلى الإمامة.

ورشفة واحدة من كلمات الله ربما أنارت خطًا مستقيمًا وبعثت قمرًا منيرًا لفردٍ

ولأسرة ولمنهج حياة، ورشفة واحدة حوَّلت خط سيرٍ منتهاه من الخلود المحقَّق في الجحيم إلى الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

إنها ليست رشفة واحدة بل رشفات .. ليست من بحرٍ واحد بل من بحورٍ خالدات غير متناهيات.

إنها رشفة هداية من موطن الهداية الأعظم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١- ٢].

إنها رشفة رشد لأنها من مصدر الرشد كما شهد بها الجِنُّ الشياطين حينما ارتشفوا الرشد بعدما استمعوا إليه فآمنوا ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ [الجن: ١-٢].

إنها رشفة رحمة من معين الرحمة فالله ﷻ يقول عن كتابه: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ [لقمان: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ [القصص: ٨٦].

إنها رشفة بشرى لأن الله سبحانه جعل كتابه مصدر البشرى، يقول عن كتابه: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٩٧﴾ [البقرة: ٩٧]، كما يقول: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢﴾ [الأحقاف: ١٢].

إنها رشفة بركة .. فما أنزل الله بركة على الدنيا مثل القرآن: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: ٩٢].

إنها رشفة نور: فهو مصدر النور وكل ما فيه نور، وقد قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

إنها رشفة علم، بل هو العلم الكامل .. وهو العلم والحكمة والتزكية، فقال سبحانه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة: ١٥١].

إنها رشفة عُلُوّ بالحق: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤].

إنها رشفة عِزَّة ... وماذا يرجو من يرتشف من مصدر العِزَّة؟! قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١﴾ [فصلت: ٤١].

إنها رشفة الحق .... ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝١٠٥﴾ [الإسراء: ١٠٥].

إنها رشفة حِكْمة .. لأنها من معين الحكمة كله، فقال سبحانه: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

حاول أن ترتشف وترتشف إلى أن تحصل على الرشفة فيتشرَّبُها قلبُك ...

رشفة قلبك الشكر لله رب العالمين هي التي يحاول إبليس – نعوذ بالله منه – أن يحول بين قلبك وبينها بكل طريق، وكل لهوٍ، وكل مشكلةٍ، وكل وسوسةٍ، لأنه ملك الأعضاء إذا بعث من جديد، والنبي ﷺ يقول: «**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ**»(١).

وهل مشاريع الشكر لله رب العالمين إلا إتيانٌ لبنيان إبليس من القواعد – نعوذ بالله منه – ليخرَّ عليه السقف وعلى جنده، لأن الملعون بنى ملكه وخطته من أول مرة على صرف ابن آدم عن شكر الله بكل وسيلة يستطيعها حتى آخر يوم على هذه الأرض، ولقد أعلن هذا أول مرة، فقال في ذلك ربنا سبحانه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧]. إذًا فهنا يكون الشكر يا أصحاب سورة البقرة .. هنا يكون ارتشاف الشكر من عيونها الساقية الباقية. وهنا نعلم -بعض العلم- لِمَ كانت سورة البقرة هي الأشد على الشيطان؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الفصل الأول

سبيلُ الارتشافِ
مِن كلامِ اللهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

السبيلُ الأولُ: لابُدَّ مِنْ صَبْرِ الْقَلْبِ وَمُصَابَرَتِهِ وَاصْطِبَارِهِ عِنْدَ الْبُحُورِ الْبَاقِيَةِ

إن ممارسة القلب لدوره إنما تكون إذا ارتشف من كلام الله وآياته أولًا ومن ملكوت الله ومخلوقاته ثانيًا.

ماذا يرجو حافظ سورة البقرة من مزيد حفظه إلا مزيد قربه وتقريبه.. ومزيد حبه وتحبيبه له ﷻ وماذا يرجو من مزيد مرور الأيام إلا مزيد التقرب والاقتراب؟ وماذا يرجو الحافظ من مزيد التعاهد لسورة البقرة ليلًا ونهارًا إلا مزيد توثيق العهد مع ربه.. إلى أن يلقاه والعهد أوثق ما يكون، وقد قرأنا في هذه السورة العظيمة عهد ربنا سبحانه ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، إن المؤمن الحق لا يحتاج كي يعاهد ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أن يرفع الله فوقه ولا فوق أُمَّتِهِ الجبل ثم يأخذ عليهم العهد، ولا أن يصرح بالقرآن بأخذ العهد والميثاق عليهم... ولا أن يقررهم ويشهدهم... كما قال سبحانه عن الأمة التي نُزِعَت من الإمامة ونُزِعَت منها الإمامة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤].

فإن عظيم حب هذه الأمة لله ﷻ .. وعظيم حبهم لرسول الله ﷺ الذي فاق حبهم أنفسهم.. وشدة اشتياقهم للقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، مع شدة خوفهم من عذاب الله ﷻ يجعلهم مُرهفي الإحساس عند قراءة كل آية من آيات الله... وقلبهم دائم التساؤل عند كل آية وموضوع: ماذا يريد ربنا هنا مِنَّا؟ ماذا يرضي ربنا في هذا المقام؟ فالقلب يريد أن يشكر ربه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، حتى وإن خفي المطلب الصريح في كلمات الله، فإنه يعلم أنَّ لله حكمةً، وله مرادًا، وهو يبحث عن ذلك المطلب الخفي القريب ليقرِّبهم الله على التطلُّب والتفكُّر والبحث كما يؤجروا على العمل.

ولا مجال أرحب لهذا السباق من ميدان القرآن العظيم وهدي النبي ﷺ.

ونحن الآن بين يدي سورة البقرة المباركة .. الكبرى في كلام الله العظيم.

إن كل ما ورد في سورة البقرة من عقد أو عهد أو مطلب فإن ميدانه هو القرآن كله .. وأن ميدان تطبيقه الأول هو سورة البقرة، أليست هذه عهود من الله ﷻ على المسلمين عامة.. وعلى حافظي سورة البقرة والقرآن العظيم خاصة.. لأن الحافظين هم الأخص والأقرب.. فهم الذين أُوتوا آيات الله.. في أعلى مراتب الإيتاء.. وهم مَنْ جمعوا القراءة بالنظر والحفظ في الصدر...فإذا قال سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]، فالكتاب كله دون استثناء هدى للمتقين، إلا أنَّ الموضع الأول والأقرب وهو الشاهد الأول لهذا الخطاب الذي يشهد أن القرآن هدى للمتقين هو سورة البقرة.. وهذه بعض أسرار كون هذه السورة في الموقع المتقدم على كل السور الكريمة، وأنها الأولى بعد ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.. وهذا ما ينبغي ألا ننساه في كل رشفة شكر من المشاريع القادمة بإذن الله.

كما يعني هذا أن سورة البقرة هي البيان الأول والأشمل لأم الكتاب التي قبلها بحكم أنها (الأم)، ثم إنها هي السورة التي تمتد بأربطة واثقة مع جميع سور القرآن الكريم الآتية بعدها.

ولولا ما في سورة البقرة من عظيم العهود.. وعظيم ارتباط بقية سور القرآن بها لَمَا خَصَّها النبي ﷺ بصحبته في قيامه أكثر من سواها، ولولا استقرار خصوصيتها في نفوس الصحابة رضي الله عنهم وعظيم حبهم لها، وشمول شكرها وعهودها وعمق رباطها في قلوبهم وجنبات حياتهم لما خَصَّها النبيﷺ بنداء الضرورة والخطورة عندما أمر العباس رضي الله عنه أن ينادي بكلمتين جامعتين تعيدان الجيش المتناثر في الشعاب وبين الأشجار لما صاح فيهم بصوته الجَهْوَرِيِّ بأمر رسول الله ﷺ، فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُنَادَى: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، يَا مَعْشَرَ

الْأَنْصَارِ، ثُمَّ اسْتَحَرَّ النِّدَاءُ فِي بَنِي الْحَارِثِ ابْنِ الْخَزْرَجِ، فَلَمَّا سَمِعُوا النِّدَاءَ أَقْبَلُوا، فَوَاللهِ مَا شَبَّهْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الْإِبِلِ تَجِيءُ إِلَى أَوْلَادِهَا، فَلَمَّا الْتَقَوُا الْتَحَمَ الْقِتَالُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ**» وَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَبْيَضَ فَرَمَى بِهِ، وَقَالَ: «**هُزِمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**»، وَكَانَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ النَّاسِ قِتَالًا بَيْنَ يَدَيْهِ[(١)].

وعن عتبة بن فرقد رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى في أصحابه تأخُّرًا فنادى فيهم: «**يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ**»[(٢)].

وعن طلحة بن مصرف اليامي، قال: «**لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ حُنَيْنٍ نُودُوا: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَرَجَعُوا وَلَهُمْ خَنِينٌ يَعْنِي بُكَاءً**»[(٣)].

ومع أن هذا الكتاب ليس لتلقين الحافظ عهوده إنما هو تفتيح البصيرة بالإشارة المبينة لأغلب تلك المواضع في حياتنا فإن المرور الخاطف على تلك المواضع أمر لابد منه ليس لأجل العلم به وحفظِه، فحسب... إنما هو لتدريب البصيرة على ما وراء ذلك مما في هذه السورة الكريمة.

لابد من المجاهدة والتفكُّر والتدبُّر والادِّكار في آيات الله حتى ييسِّر الله لك رشفة .. فما أغلاها.. لابد من الصبر والمصابرة والانتظار والاصطبار والتكرار حتى تحصل على رشفة .. كصبر العطشان المقطوع حتى يحصل على آخر قطرات ماء من إناء يحفظ بها حياته. لابد من الإلحاح على الله بالدعاء، لابد من قراءة السورة المباركة وتدبُّرها، لابد من ختامها مرارًا وتكرارًا، لابد من تعاهدها، لابد من التهجد بها، لابد من الدعاء بها، ولسوف يقبل فضل الله - بإذن الله . .. ولسوف ترتشف، وترتشف ثم تفيض- بإذن الله.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند (٦/ ٢٨٩) رقم (٣٦٠٦)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٥)، وابن حبان (٧٠٤٩).

وصححه الألباني في المشكاة (٥٨٨٨).

فاقرأ السورة المرة والأخرى وقلبك مستنفر لاستخراج مرادٍ لله جديد غفلتَ عنه من قبل، اقرأ وقلبك يتطلب استذكار العهود القديمة معه سبحانه ليحييها ويجدِّدها، وبعد هذا فلن تجد كنوزًا وفرة وكثرة وعظمة وتنوعًا في موضع كما هي ظاهرة أو مذخورة موجودة في هذه السورة المباركة الكبرى... فهل وعت قلوبنا – الآن – أي حظوة حظينا بها بحفظنا سنام القرآن العظيم؟

السبيلُ الثَّانِي:
لابُدَّ مِنَ الإِحْسَاسِ المتيقِّنِ بتحقق الارتشافِ منْ آياتِ اللهِ تعالى

إنه أمرٌ عظيم ينبع من الإحساس الموقن بأن ثَمَّ لله مطلبًا منا في هذه الآية والآيات .. ومن هذا اليقين يبتدئ ارتشاف المعاني .. ويبتدئ معه تكرار هذه الآية ولربما يبتدئ هذا اليقين يزداد كلما مررت بهذه الآية في الليل أو في النهار وإن لم يكن تكرار المرور في ليلة واحدة.

وأنت في هذا لا تحدد آية بعينها، لترتشف منها، ولا نوعًا من المواضيع بعينه فالكل كلام الله، وكُلُّه نور، ولا تدري من أي كلماته سيشرق عليك النور، فكل آيات الله عجب، وكل آيات الله نور .. سواء آيات أسماء الله الحسنى أو حديث الله سبحانه عن الأقوام الهالكين، أو آيات الله عن غزوات الرسول ﷺ، أو آيات الله في الأحكام العملية أيًا كانت ... وغيرها؛ فكلها كلام الله تعالى .. ولله في كل كلامه حكمة، وفي كل آية خَبَر وخُبْرٌ دقيق .. ذلك الذي نبَّه إليه في كلامه، فقال سبحانه:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١]، وإن هذا القرآن هو البصائر كما أنه هو الهدى وهو الرحمة، فقال سبحانه:﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠] حقًا والله إنه لبصائر فالأعمى يبصر به .. وإنه لبصائر لمن ليس عنده بصائر، وما من آية إلا فيها هذه الخاصية ... فقال سبحانه:﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]. سبحان الله ..

إذ كيف يكون في قميص يوسف عليه السلام إبصار لأبيه يعقوب عليه السلام وما القميص إلا خرقة، ولا يكون إبصار لنا في كلام الله الذي هو بصائر للناس؟!

تيقَّن أن هذا ما سيكون وسيظهر للناس كافة يومًا من الأيام مثلما تظهر الشمس للناس كما وعد الله ﷻ، وعسى أن يكون قريبًا، فقال سبحانه: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

إذًا فماذا يعني استمرار ذلك مع استمرار التهجد والتعاهد لسورة البقرة إلا ولادة القلب الموقن .. وماذا يعني ذلك مع دوام التهجد وإدامته مدى الحياة بالنسبة وماذا يعني هذا لو كثر من يرتشف من بحور القرآن ... وماذا يعني لو نشأ جيل من الموقنين تفتَّحت له أبواب كلمات الله هكذا؟

ولأنني أعتقد أن اليقين لا يكون بالتلقين أبدًا .. لأنه هبة من عند الله تعالى وسبيلها أن يُرِي الله ﷻ آياته من كلماته أو في ملكوته فينشأ الموقن، كما قال – سبحانه – عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام:٧٥]، وآيات القرآن أعظم صنعًا لليقين من آياته في خلقه، ثم إن ارتشاف القلوب من آيات ربها سبحانه ومن كلماته العظيمة مباشرة وهي العيون الساقية والبحور الباقية للارتشاف ... فإن فتح الله على القلب الصابر المصابر المصطبر المحتسب وجهه، فإنها لن تكون رشفة واحدة ولا ومضة مفاجئة، ولا إشارة بارقة، بل تحقق الارتشاف مرة ومرة ومرة ... والرشفة تجر لأختها .. والحسنة تتبعها الحسنة – والشكر يتبعه المزيد ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم:٧] – والدرجة الجديدة والتي قبلها عند الله كما بين السماوات والأرض .. وما أصله طيب ففرعه طيب، وما أصله ثابت ففرعه مثمر ناضر نابت، وهي رشفة لكن أوصلت إلى درجة والدرجة كما بين السماء والأرض.

وهكذا تترابط الصالحات، وبِتَرَابُطِها يعظم اليقين ويشتد في القلب مثلما أن الآية تحفظها في قلبك تنادي على أختها التي بعدها، فإن الرشفة من هذه تُوَلِّدُ – بإذن الله – الرشفة من أختها، والشهداء قال الله عنهم: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٧٠] فإن هذا يُنشِئ في قلب مَنْ بقوا بعدهم اليقين العظيم فيسألوا الله الشهادة بصدق.

وكل هذا كان بالرشفة الأولى للقلب؛ هذه الرشفة ربما كانت من معين كتاب الله الذي لا مصدر أعظم منه أبدًا كمثل وفد علماء النصارى الذين تلا عليهم رسول الله

ﷺ فعرفت قلوبهم الحق فتشرَّبت الحق، واهتزَّت لعظمته، وفاضت أعينهم من الدمع فيضًا.

وكل هذه الحالة العظيمة التي سجَّلها الله ﷻ كانت برشفة القلب الأولى كما قال سبحانه: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

إن رشفة القلب من الخفَّة والرقَّة واللطافة بحيث لا يمكن إدراكها ولا مراقبتها .. إنه نور الهدى يخترق في لحظةٍ الصدور فيستقرّ في القلوب فإذا بأقصى قلوب الجموع وأغلظها وأظلمها قد اهتدت دون إذنٍ من أحدٍ، ولا إحساس من أحد ولا من أصحابها أنفسهم .. إنها رشفة القلوب من موقف من المواقف، كما قال الله ﷻ عن السحرة فقال سبحانه: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١١٣-١٢٩].

وربما كانت رشفة القلوب من نظرة الأعين إلى ملكوت السماوات والأرض والله سبحانه يعلم كم ترتشف القلوب من هذا الوجود وما جعل الله فيه من عجائب، فسبحان الله كم دلَّ اللهُ العبادَ على ما خلق وأمرهم بالتدبُّر والتفكُّر والنظر وما هذه إلا وسائل ارتشاف القلوب وفي سورة البقرة قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

ولا أثر لهذه المخلوقات العظيمة وهذا الخلق العظيم مع الغفلة .. ولا أثر حقيقي لها مع الكِبْر والعناد وإغلاق القلب وإن تفتَّحت الأبصار وألبست الأعين المناظير الكونية العظيمة ..

وهكذا ترتشف قلوب المؤمنين كل مرة تكرِّر فيها قراءة قصص القرآن وقصص الأنبياء عليهم السلام من كلام الله العظيم.

ولا شيء أعظم تأثيرًا في القلوب من كلام الله ﷻ وبناءً لليقين مثل أَنْ يتحدَّث الله ﷻ عن الله ﷻ بشكل مباشر مثل آية الكرسي وذلك عن أسمائه الحسنى وأفعاله سبحانه.

كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ

﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢١-٢٤]، أو من خلال ما خلق فأحسن والله أحسن الخالقين، ومن آياته سبحانه في كل شيء: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[الغاشية: ١٧-٢٢].

أو من خلال حديثه ﷻ عن الدار الآخرة .. فإن ارتشاف القلوب منها عظيم .. ومن لم يأت بالتبشير يأت بالإنذار والترهيب.

وكم من حالةٍ أنزل الله سبحانه آياته لحركةِ قلوب أصحاب النبي ﷺ صدقًا وإقدامًا ويقينًا؛ ولقد قال الله سبحانه: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨-١٩]. والسر هو أن سادة الموقنين هم أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعظم وأول المقصودين بقوله – سبحانه – في أول سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: ٤] ولعظيم اليقين الذي استقرَّ في قلوبهم، فكم أنزل الله بسببهم آيات الله في هذا القرآن الذي بين أيدينا.

فكم من حالةٍ أشفق فيها الصحابة رضي الله عنهم حتى ارتعدت قلوبهم وجثوا على ركبهم فأنزل الله ﷻ عليهم الفَرَجَ الذي مسح على قلوبهم وعلى قلوب المؤمنين مِن بعدِهم كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فعن أبي هريرة قال: لما أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما

قال أهل الكتابين مِن قبلكم - أُراه[١] قال: سمعنا وعصينا قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما اقترأها القوم فذلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ الآية كلها، ونسخها الله تعالى فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية إلى آخرها[البقرة: ٢٨٦][٢].

وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ دخل قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: قولوا سمعنا وأطعنا وسلَّمنا. فألقى الله تعالى الإيمان في قلوبهم فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ حتى بلغ ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فقال: قد فعلت، إلى آخر البقرة، كل ذلك يقول: قد فعلت[٣].

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ جاء أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وناس من الأنصار إلى النبي ﷺ فجثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا بما فيها، وإنا لمأخوذون بما نحدث به أنفسنا، هلكنا والله. فقال النبي ﷺ: هكذا أنزلت، فقالوا: هلكنا وكُلِّفْنَا من العمل ما لا نطيق. قال: فلعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوا: سمعنا وأطعنا. واشتد ذلك عليهم، فمكثوا بذلك حولًا، فأنزل الله تعالى الفرج والراحة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية، فنسخت هذه الآية ما قبلها، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**»[٤].

---

(١) بضم الهمزة؛ أي: أظنه.

(٢) رواه مسلم (١٢٥).

(٣) رواه مسلم (١٢٦).

(٤) رواه مسلم (١٢٧).

وأما حديث الله عن رسوله ﷺ فهذا والله لَمِنْ أعظم ما ترتشف منه القلوب .. إلا أن بعض القلوب لا ترتشف من حديث عن رسول الله ﷺ لأنها عن هذا الموضوع في غفلة .. رغم أنه لا مقارنة بين حديث المحدثين وأصحاب كتب السيرة وكتب الخصائص وبين حديث الله .. والله إنه لفارق عظيم!

إن الفارق بينهما كالفارق بين حديث المخلوق وحديث الخالق ﷻ! فهل يُقارن كتابٌ بكتاب الله ﷻ ، ولعلي أعرض شيئًا من هذا في كتاب مستقل عن رسول الله ﷺ في سورة البقرة .. فإن لم أعرض فلتنظر أنت ولتبحث وأنت تقرأ وستدرك - بإذن الله - وسوف يرتشف قلبك مرارًا وتكرارًا وسوف ترى رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وتراه كما ينظر له ربه ﷻ.. وما أعظمها من نظرة .. ستراه كما لم تره ﷺ من قبل.

إن الحديث عن رشف الشكر على نعمة حفظ سورة البقرة لا يعني اقتصار الحديث عن نوع من العبادات اسمه الشكر .. بل كل ما تقتضيه سورة البقرة شكر .. فالشكر هنا يكون بالثبات على الحق، والشكر يكون بالصبر، والشكر يكون بالتقوى، والشكر باتباع النبي ﷺ، والشكر بكلمة الحق، والشكر بحفظ سورة آل عمران ثم حفظ القرآن، والشكر بالتهجد، والشكر بالصدقة، وهكذا وهكذا.

حافظ سورة البقرة يقرأ كل ما فيها دون استثناء على أنه أُنزل الآن .. وأنه قادم قطعًا ... حتى ما مرَّ، فقصة آدم عليه السلام هي الصراع الدائم وما وقع منه ما كان افتتاحه .. والخلافة لآدم ما كانت إلا الأولى .. وقصة بني إسرائيل ما كانت إلا لبيان أسباب نزع الإمامة منهم .. من نزع الكعبة، والتشريعات و ... وهو إذ يقرأ الختام لا يفارقه أن هذا هو القادم المتحقق القريب.

هذه هي الروح التي تقرأها فكيف لا يعيشها .. وسيجدها أقرب وتقترب أكثر و أكثر...

السبيلُ الثَّالثُ:
لابدَّ من معرفةِ صِبْغَةِ كَلامِ اللَّهِ العَامَّةِ

خذ بعض الصبغة المتحققة في كلام الله سبحانه الملازمة له كله .. وإنك سوف تجدها في كل مرة في آيات الله ﷻ بشكل عام وفي سورة البقرة بشكل مخصوص .. وتذكَّر جيدًا أنك إن لم تجدها كما ذكرت لك فلا يعني ذلك عدم وجودها أبدًا .. إنما يعني شيئًا واحدًا فقط؛ وهو أنك لَمْ تدركْها أنت! فتيقن بوجودها .. فإن وجودها طبع لكلام الله العظيم .. وأنت إذا لم تعرف طباع إنسان .. فأنى لك أن تصاحبه فضلًا عن أن تحسن صحبته! ولذا ذكرت هنا ما يعين - بإذن الله - على تصيُّد الرشفة تلو الأخرى من كلام الله، ولا يتصيَّدها إلا القلب .. والأمر أكبر من ذلك وأوسع ولكن لابد من الإعانة والدربة وإلا فكلام الله هو الذي يحيط ولا يحيط به مخلوق، وهو الذي يعلو ولا يعلو عليه أحد، وهي هبة من عند الله ﷻ لمن يستحقها.

الصبغة الأولى: صبغة الهداية: فمن ذلك أنه ﷻ يريد هداية المتقين أساسًا، فقال سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢] هدايتهم إلى الصراط المستقيم في شئون الحياة كلها.

كما قال الله سبحانه في آيات الصيام عن غاية إنزال هذا القرآن كله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]... فلا يفارقنَّك اليقين بأنه لا توجد آية واحدة من آيات الله لا يكون فيها هدى هذا محال، لكن من الذي يُهدَى لهذا الهدى؟!

إنه يقينًا موجود في كل آية وأنت تمرُّ عليه كل وقت وحين، وأنت تقرأ سورة البقرة وتقرأ القرآن. تأكَّد وتأكَّد ثم تأكَّد؛ وستجد أن الله جعل نور الهدى ينبعث من كل آياته وكلماته أيًا كان موضوعها .. ولقد كتبت كتابًا جعلت له هذا العنوان: [مَنْ يُبَلِّغ

الناس؛ أن القرآن هدى للناس؛ في كل كلمة وآية، بل ما بين الآية والآية] نعم لقد بَيَّنَّا أن القرآن هدى للناس كافة وذلك من عمق آيات الأحكام العملية وهي آيات الصيام ... فَتَنَبَّهْ لهذا جيدًا .. فالهدى بين يديك، وبين عينيك فاستبصر بالقرآن فسوف تبصره، واستعن بالله وسَتُبَصِّر به العباد – بإذن الله.

الصبغة الثانية: صبغة الرحمة من مراد الله في آياته الرحمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل: ٧٦، ٧٧] أليس هو كلام الله الرحمن الرحيم أليس استفتاح قرآننا وصلاتنا ببسم الله الرحمن الرحيم ... فمن ينزع الرحمة من آياته؟! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وليس هذا محل شك عند مؤمن .. فهو أمرٌ مُسَلَّمٌ، لكن إلى متى يبقى التسليم حجابًا دون فهم كلام الله، ودون بلوغ ما ادَّخر الله فيه من أسرار وعجائب ..؟!

خذ هذه وانطلق بها في رحاب آيات الله في سورة البقرة وسترى بعينيك قُبح الغفلة عن رحمة الله وربنا يقول في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[يونس: ٥٧].

الصبغة الثالثة: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾: أن هذا القرآن تفصيل كل شيء: كن على يقين أن هذا القرآن فيه أسرار لا يمكن بلوغها إلا بأمر الله، وببصائر يفتحها الله، وإن الحياة وتغيُّراتها لا تعجزه ولا تتعدَّى على إحاطته، قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١]، وقال سبحانه: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل:٨٩] نعم بهذا الاتساع؛ فَأَقْدِمْ أنت ولا تُحْجِمْ، أَقْدم فقد رأينا أن الله يخاطب الكافرين بالقرآن، ويأمرهم بتدبُّر القرآن، ويخاطب النصارى وبني إسرائيل وكل أصحاب الألسنة الأخرى ويُحَاجُّهم بالقرآن، ولا يخص العلماء منهم بل يؤكد على من رزقه عقل .. تَعَلَّمَ أم لم يتعلَّم .. وهؤلاء أمم ولغات وعادات! فمن

يستطيع حجب هؤلاء عن نور القرآن؟! فَأَقْدِمْ واستعن بالله ففي هذا القرآن أسرار وأسرار بل فيه سرّ السماوات والأرض ... وهل بعد هذا من سر والله ﷻ يقول: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦].

الصبغة الرابعة: أن القرآن مُبشِّر ومنذر: خذ اليقين بالبشرى وامضِ في كتاب الله متنقِّلًا بين آياته متوقِّعًا في كل موضوع من مواضيع الآيات أن تجد البِشْر، وحُقَّ لك أن تتحرَّاها وتترصدها وتتوقعها في أي موضع وفي كل موضوع ... قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[مريم:٩٧].

أبشر واستبشر بالبشرى تَأْتِكَ من حيث لا تحتسب .. فاستعن بالله وأقدِمْ فالله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩]، بل القرآن في ذاته بشرى للمؤمنين فقال سبحانه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل:١٠٢] إذًا فإن القرآن لا يبشر فحسب بل هو في ذاته بُشرى، وهكذا ورد في سورة الأحقاف، فقال سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف:١٢]، ومن الخطأ في منهجية تدبُّر القرآن والبحث فيه بالاقتصار على لفظ صريح فقط في الموضوع المطلوب، أو البحث فيه من خلال البحث الموضوعي! بل هي الروح التي تنبعث من القرآن فتخالط عقلك وقلبك وتعيش هنالك وتعيش بها أنت .. وبهذا تتفتح أبواب الهدى والنور على كل ما تريد البحث فيه وما يوفقك الله منه لذلك.

وما أحوجنا نحن في هذا الزمان الذي رُدَّ فيه الإنسان إلى أسفل سافلين إلى البشائر والمبشرات .. ولسوف تراها لو فَصَّلنا فيها شيئًا لم يره من سبقك وليس لمزيد علمنا على من سبقنا -معاذ الله -، إنما لأننا نحن - أصحاب هذا الزمان الأخير - أصبحنا نحن المقصودين بهذه البشائر، ولأن الزمان مرَّ من قبل ولم تتحقق على أكمل وجوهها وأوسعها.

فكم من البشائر العظيمة المنتظَرة بوعد الله ﷻ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٣٣]، وكم من البشائر وفتوح العلم والهدى في قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

وكم من البشائر التي أكَّدها الله ﷻ كثيرًا لحاجتنا نحن وحاجة إيماننا، وتثبيتًا لها مثل وَعْده الجازم ﷻ: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤]، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٥-٥٨] أي ازدحام للبشائر مثلما ورد في هذه الآية؟!

ويقول سبحانه: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾[القصص:٦١].

وانظر في ختام سورة السجدة وهي تصنع الأمل، وتبثّ البشرى فَجْر كل يوم جمعة من أولها إلى آخرها .. حتى الختام وما أدراك ما الختام؛ فيخاطبنا ربنا العظيم سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة:٢٧-٣٠].

والبشرى بالخلاص من المجرمين والمفسدين في الأرض، وأن هذه ستكون بسهولة سوق الماء الذي اعتدنا رؤيته وهو يزيل القاذورات من على سطح الأرض، كما أنه يزرع الزرع.

ولقد عزمت قبل فترة أن أكتب كتابًا مختصًّا في البشائر التي حملتها لنا سورة البقرة

.. ولقد وجدت الآيات التي حملت البشائر لهذه الأمة تُقارب المئة آية من آيات سورة البقرة، وعند التفصيل سوف نجد أن الآية الواحدة من تلك الآيات فيها العديد من البشائر .. فلا أدري كم سيبلغ عددها؟!

ويكفي أن تكون أول بشارة في القرآن الكريم صريحة .. منصوصة بلفظ البشارة من رب العالمين يأمر فيها رسوله الكريم ﷺ أن يبشر بها المؤمنين إنما هي في سورة البقرة وتلك هي قوله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥]، وهل من بشارة أعظم من البشارة بالجنة؟!

السبيلُ الرابعُ:
لابدَّ مِن دخولِ مَيدانِ رَشْفِ الشكرِ الأكبرِ وهو التَّهجُّدِ

لو قال الحافظ لصدق: لقد قرأتُ هذهِ السورةَ الكريمةَ عددًا لا يعلمه إلا الله ﷻ حتى حفظتها .. وها أنا ذا أبتدئ مرحلة جديدة، مرحلة «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» ... فما قصة الشكر الجديد للمرحلة الجديدة؟

إن الشكر ليس قالبًا مصبوبًا حتى يتساوى الناس فيه، ولا هو تعليمات معينة حتى يُلَقَّنها الناس تلقينًا.

لم تكن عائشة رضي الله عنها تدرك أن قيام رسول الله ﷺ الليل إنما كان شكرًا لله تعالى، ولهذا حين سألته رضي الله عنها كَشَفَ لها ولأمته السِّرَّ ﷺ، فإذا السر وراء القيام هو الشكر لله تعالى «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

وها نحن يا من تأهَّلنا لطلب هذا المقام بإتمام حفظ سورة البقرة التي كانت هي السورة الأطول والأكبر والأشهر فيما نقوم به إنما نريد شكر الله سبحانه على ما أنعم علينا بكل شيء وبأعظم شيء وآخر شيء وهو حفظ سورة البقرة المباركة .. إلى أن يُقَدِّر الله ﷻ ويمنّ عليّ فتلتحق بها بقية السور في صدري - بإذن الله - فإدراك هذا المقام ليس هو بمجرد القيام صلاةً ركوعًا وسجودًا وسلامًا، ولا بالتسجيل اسمًا في القيام والقائمين، إنما ببلوغ المقام حقًا عند الله ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء:٧٩].

وهذا يعني أن القيام هو المؤهِّل لصاحب القرآن أن يتهجد به بالليل خاصة .. وهو يعني أن القرآن هو من يبلغ برسول الله ﷺ ما يريد من مقام؛ ذلك هو المقام الأوحد بين الخلائق جميعًا ... إذًا فشكر النبي ﷺ يتحقق بالقيام بالقرآن، فما كان قيام النبي ﷺ إلا بالقرآن، وما كان غير القرآن إلا أذكار الصلاة وحركاتها .. وما تبقى فكلُّه من التجاوب مع كلام الله وخصوصًا الدعاء والاستغفار والاستعاذة وما إلى ذلك .. وهذا

الشكر هو الذي أراده النبي ﷺ وأخبر به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»... إذ أصل تفطُّر قدميه ﷺ وسببه إنما هو طول القيام بالقرآن.

لكن بما أن سنة الله في الشكر هي الزيادة، كما قال الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ... فقد جاء ت الزيادة التي لا يطمع مخلوق إلى أرفع منها إذ قال الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: فهو ليس مجرد صلاة، ولا قيام وتطويل، إنما هو التهجد بالقرآن ... وبالقرآن أصلًا وأساسًا وما سواه تبع له، وهو من نوره المبين، ومن آثاره، وإثاراته للنفس إذ هو يُتلى وهو مادة التهجد .. (ولما كان قيام النبي ﷺ شكرًا لله تعالى فقد جاء شكر النبي ﷺ بالتهجد بالقرآن بالمزيد من عند الله، والعطاء الذي لا نظير والمقام المحمود الذي لا يناله إلا واحد من خلق الله إذا اجتمع خلق الله كافة).

ولما كانت المنافسة لا نظير لها مطلقًا بين الأنبياء عليهم السلام جميعًا، فهذا أكرم خلق الله على الله قد ختم به سادة الأمم وقادتها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكان منه ما كان؛ ولذا دلَّ الله رسوله ﷺ على هذا المقام الوحيد فقال له: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾، كما دلَّه ﷻ على يوم الجمعة العظيم، وهكذا خصَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رسوله ﷺ بخصائص لا تُعَدُّ ولا تُحصى بشرط أن نأخذ من كلام الله تعالى الذي لا يحيط أحد بعلمه.

ولسان حالي الآن يقول لي - أنا حافظ سورة البقرة: يا هذا لقد ابتدأت مرحلة عظيمة لم أعهدها بهذا الأمل العظيم، ولا بهذا الشكر العظيم، ولا بهذه الخصوصية العظيمة.

فليتجلَّ لك مقامك الذي تطمع إليه وترجوه كما تجلَّى المقام المحمود لرسول الله ﷺ ولا قياس ولا مقاربة بين المقامين في الدنيا فشَمَّرَ إليه فَأَدْرَكَه وهو في الدنيا وقد بشَّره الله ﷻ بذلك.

قلها في نفسك مع ربك عهدًا: فلأُشَمِّرَنَّ له ولأُدركنَّه بالتهجد بسورة البقرة .. وهي السنام للقرآن وهي التي تبلغ بالمتهجدين السنام من كل مقامٍ سامٍ.

ألم يُسَمِّ النبيُّ ﷺ حافظَ سورةِ البقرة بصاحبها؟!

أليست هي السنام فكيف لا تبلغ بصاحبها - وهو صاحبها - فأين الصحبة؟! كيف تفارقه وهو ملازمها في الليل والنهار، في العلم والعمل، في الفهم والهداية؟!

إن التهجد بالقرآن أمرٌ من عند الله مقصود بأحرفه ... ولن يتمكن أحد من إقامة هذا الأمر كما أمر الله ﷻ وكما فعله رسول الله ﷺ إلا أن يكون حافظًا؛ هذا هو الأساس لأن رسول الله ﷺ كان يقرأ من حفظ قلبه حيث نزل القرآن عليه وُوضِع هناك واستقرَّ في صدره ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧] ومن لم يحفظ فليقرأ بعينيه وله أجره .. وليس هذا هو موضوعنا ... إنما الذي يعنينا نحن من حفظنا سورة البقرة كاملة تامة بحمد الله هو أننا بهذا الحفظ نكون قد أتممنا الإعداد للانطلاق في رحلة رسول الله ﷺ لشكر ربه سبحانه على فضله عليه .. بل هي رحلة بلوغ المقام الأعلى الذي أسأل الله أن يبلغنا إياه جميعًا.

وهذه ليست مجرد قراءة قرآن وقيام وقعود وذكر لسان .. وإن كان كل هذا عظيم إنما هي رحلة تهجد.

﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الهجود فمن أسماء الأضداد، وينطلق على النوم وعلى السهر، وشاهد انطلاقه على السهر قول الشاعر:

ألا زارت وأهْلُ مِنىً هُجُود ... ولَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنىً يعُود»[1]

وهنا لا يمكن أن يكون «النوم» هو المقصود بالتهجد .. لا والله، بل هو القيام به .. القيام بالقرآن لا النوم بالقرآن، فالقرآن حكمٌ على اللغة، وليست اللغة حكمًا على

(١) النكت والعيون (٣/ ٢٦٤).

القرآن .. فنقول: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ يعني: دع النوم به! ويشهد لهذا ما كان يصنعه رسول الله ﷺ.

فلرسول الله ﷺ حال خاص في تهجده، وله إعداده، وله مناجاته، وهتافه بربه .. وله ما له ﷺ.

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، يَشُوصُ فَاهُ بِالسِّوَاكِ**»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(٢).

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، تَهَجَّدَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِي، فَسَمِعَ صَوْتَ عَبَّادٍ يُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَصَوْتُ عَبَّادٍ هَذَا؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْ عَبَّادًا**»(٣).

وَعَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو الْمَازِنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ، وَكَانَ يَسْتَنُّ قَبْلَ أَنْ يَتَهَجَّدَ** (٤).

وعن أبي أيوب وعائشة وأبي سلمة رضي الله عنهم: **أن رسول الله ﷺ كان إذا تهجَّدَ يُسَلِّمُ**

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨٦)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٥).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٦٦٩).

بينَ كُلِّ ركعتينِ[١].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُصَلِّي فِي السَّفَرِ إِلَّا رَكْعَتَيْنِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ مِنَ اللَّيْلِ**[٢].

وعن أبي قتادة كان أبو بكر يوتر ثمّ ينام، ثمّ يقوم يتهجّد، وأنّ عمر كان ينام قبل أن يوتر ثم يقوم فيصلي ويوتر، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أَخَذْتَ بِالْحَزْمِ**»، وقال لعمر: «**أَخَذْتَ بِالقُوَّةِ**»[٣].

نعم الصلاة هي القالب المبارك وقد آن لهذا القالب أن تعود له حياته وروحه الداخلية التي نُزِعت منه منذ زمن بعيد .. تعود إليه كما أراد الله، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢]. تعود له روحه حين تعود له ناشئة الليل، ويعود القرآن يختم فيها ختمه ويصبغ فيها قلبه، كما قال - سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦]، فيبلغ صاحبه درجة الشكر فيشكر الله على أن أعانه على شكره ليصبح شكورًا، ومنه يتطلَّع إلى أعلى مقام يرجوه وأنَّى له أن يبلغه .. فيبلِّغه الله ﷻ ولكن هذه المرة بالتهجد بالقرآن، فبالتهجد بلغ رسول الله ﷺ المقام الأوحد للخلق وهو المقام المحمود، فدَلَّهُ الله ﷻ حين قال له: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩].

﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: فسبحان من أمر بالتهجد وهيَّأَ كل شيء فيه ليرتشف المتهجِّد ويشكر ربه - سبحانه - ويبلغ عند الله مبلغًا. وأي أجواء إعدادٍ لقلبِ عبدٍ مثل كلمات الله تعالى إذ الصدر صفاء، وإذ القلب سلامة ونقاء، وإذ السكينة عمَّت الصدر والأجواء .. وإذ القلب متعطش للتهجد في أعماق المساء .. فهل يروي تعطش القلب

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥٥٩٠)، وصححه الأرنؤوط.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٠١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

إلا تنزل القرآن عليه ولا ينبغي أن يفارق القائم إحساسه بأن القرآن يتنزل وإن القرآن لَعَلِيٌّ، كما قال سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ١-٤] .. استعداد كامل لرحلة هذه الليلة العظيمة تقودها كلمات الله تعالى... وجنودها القلوب القائمة المتهجدة .. قد لفَّت ظلمات الليل الوجود من حولنا فعَمَّت السكينة واختفت المشاهد والصور، فلا شيء يشاغلك عن آيات الله وكلماته حتى آيات الله من خلقه في ملكوته .. لأن الآيات المخلوقة قد محاها الظلام فاختفت في ظلمة الليل كما قال سبحانه: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٢]، لهذا كان هذا هو إعداد الله ﷻ للكون للتهجد، وكان هذا هو التفرُّغ له – سبحانه – وكانت هذه هي الخلوة مع التفريغ والتفرُّغ ... فما كان مع موسى عليه السلام شيء غير نفسه ولبسه الضروري مطلقًا في الوادي المقدس حتى نعله أُمر بخلعه، إلا عصاه إذ كانت مقصودة، وكانت مادة للحديث عنها لأنها هي من سيقع عليها الإعجاز، وبها سيكون التحدي، ومنها ستتولَّد المعجزات. وما كان شيء في الوجود يرى إلا النور الأوحد في الوادي المقدس.

إذًا فالتهجد بالقرآن إنما هو الميدان الذي يُفَتِّح على المتهجد من خلال كلام الله ﷻ أبوابًا من الشكر، ويفتح له في هذا الأمر فتوحًا، ويهديه طرقًا للشكر لم يكن يسلكها.

فالشكر الحقيقي ليس في ذات القيام وحركات الصلاة فحسب إنما الشكر بهذا القرآن، منه يتفجَّر ومنه ينبعث، ومعه يتنزَّل، فما هذا التهجد إلا ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٦﴾ [النازعات:١٥، ١٦] وادي المؤمنين الشاكرين ينزلونه في ليلهم حين ينادي عليهم ربهم كما هو الوادي المقدس لموسى عليه السلام.

هنا في هذا الوادي المقدس قد خيَّم الليل عليك وعلى أهل بيتك كما خَيَّم على موسى عليه السلام وأهل بيته ..

هنا حُلَّت عُقَدُ الشيطان جميعًا، هنا الملائكة تطوف وتقترب إذ أنت تقترب، هنا

كلام الله يعلو، هنا كلام الله تعالى ينبعث من ميدان صدرك إلى سماوات تدبُّرك، هنا رب العالمين ﷻ معك معيَّة خاصة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، فلا تحسب - أيها المتهجد - أن معية الله هنا كعدمها - عياذًا بالله -، ومعية الله هنا ليست مثلها معية، كما أن معية الله ﷻ مع موسى عليه السلام ليس مثلها معية، وشهود الله ﷻ هنا لهذا المقام حق، وهو شهود مخصوص ليس مثله شهود كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١].

فالله ﷻ أجملَ بالذكر كل شأن ولم يخصّ شأنًا دون شأن، فقال سبحانه: ﴿فِي شَأْنٍ﴾، وجَمَعَ كُلَّ الأعمال فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ لكنه سبحانه خَصَّ من بين الشئون كلها ومن بين الأعمال كلها شيئًا واحدًا فقط وهو «تلاوة هذا القرآن»، فقال: ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾، وهذه الخصوصية حقيقة نعم فهو الشيء الوحيد المخصوص في الوجود كله ومن بين الموجودات كلها الذي هو من الله ﷻ، أليس هو كلامه وكل شيء سواه فهو خلق الله، وهذا يكفيه ...

وعن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَا تَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ**»(١)، يَعْنِي الْقُرْآنَ.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِعَبْدٍ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا، وَإِنَّ البِرَّ لَيُذَرُّ عَلَى رَأْسِ العَبْدِ مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ، وَمَا تَقَرَّبَ العِبَادُ إِلَى اللهِ بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ**»(٢) قَالَ أَبُو النَّضْرِ: يَعْنِي القُرْآنَ.

فهل تجتمع كل هذه الخصائص من ركعتين أو أكثر، والقرآن العظيم، في وقت

(١) أخرجه الحاكم (٢٠٣٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١١)، وأحمد (٢٢٣٠٦)، وضعفه الألباني.

مخصوص مع ملائكة الله الطوَّافة بالعبد إذ هو في صلاته، مع شهود رب العالمين الشهود المخصوص .. مثل ما يحدث عند تهجد العبد بالقرآن في صلاته؟!

أرأيت لِمَ خَصَّ الله رسوله ﷺ بهذا التهجد هاديًا له لبلوغ المقام الأوحد – المقام المحمود ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾.

فهل استبان لنا الآن كيف يكون التهجد ميدانًا لشكر الله تعالى .. وكيف يكون شكر الله في التهجد بالقرآن موصلًا للمقام الذي نرجوه – بإذن الله – كما بَلَّغَ الله رسوله ﷺ بالتهجد أرفع مقام على الإطلاق ... هذا وهو رسول الله ﷺ سيد كل الصالحين في كل المجالات مطلقًا ... ورغم كل هذا أمره الله بالتهجد بالقرآن خاصة ليبلغ ذاك المقام خاصة.

الفصل الثاني

التدريبُ على ارتشافِ الشكرِ عمليًّا مِن سورةِ البقرةِ

الارتشافُ الأولُ: تقوى الله ﷻ

رشفةٌ أولى: فَلَكَأَنَّ عُنْوانَ السُّورةِ هو التَّقْوَى

يبقى حافظ سورة البقرة طيلة حياته تقيًا نقيًا ظاهرًا وباطنًا... يبقى الحافظ حذرًا من أن يخالط قلبه الذي ضم سورة البقرة وجسده الذي عكف واعتكف حتى حظي بسنام القرآن من أي شيء يُغْضِبُ صاحب هذا الكلام، في أي حال أو أي ظرف أو أي مكان...

ألا تذكر في مرحلة حفظك السورة المباركة كم مرةً مرَّ بك ذكر الله سبحانه التقوى..؟

ألا تذكر كم أسمعك الله ذكر التقوى في مختلف ظروف الحياة في السورة المباركة؟

ألا تذكر كيف ألزم الله ذكر التقوى لجميع ما شرعه في هذه السورة...؟

ألا ترى كيف أنك لو جمعت ذلك كله لحياتك لوجدته مشروع حياة لك كاملة، بل لأمتك وللناس؟

ألا ترى أن ابتداء الكتاب اللازم يعرف من عنوانه.. وعنوانه جاء في ابتداء السورة نفسها بذكر التقوى على زنة الاسم الملازم لأهلها فقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:١-٥].

هذا وعند العنوان يُفْتَحُ للقلب بابٌ عظيمٌ كريمٌ في هذه السورة لِيُبْصِرَ فيه مراد الله ﷻ مِنه هذا المقام.. ليقوم بهذا الشكر حق القيام...

وكيف لا يقوم الحافظ بحق التقوى.. وهو يرى كيف يبين الله ﷻ أن الأمم السابقة حين لمْ تتقِ اللهَ سلبها اللهُ ﷻ الإمامةَ على الناس، وحوَّل نعمها لعنة وغضبًا عليها وجعل قلوبها غلفًا مقفلة...؟!

ألم نحفظ في سورة البقرة قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة:٤٠، ٤١].

وقال بعدها سبحانه مخاطبًا أبْعَدَ الخلق عن التقوى فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة:٤٧، ٤٨].

وهكذا ساروا على إلغاء تقوى الله من كل شيء حتى انتهى بهم الأمر إلى أصعب نهاية حين جاءتهم الرسالة الخاتمة، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾[البقرة:٨٩-٩٠].

فَهَوَوْا إلى اللعنة، والغضب على الغضب ثم العذاب المهين .. فماذا بعد ذلك؟!

رشفةٌ ثانية:
لزومُ التقوى في الحياةِ كُلِّها

نعم إن التقوى في سورة البقرة هو مشروع حياة للفرد والأمة وسوف تبقى في ذرى الأمم ما دامت محافظة على عهد التقوى.

وكما جاء هذا العهد من الله سبحانه للمؤمنين في سورة البقرة بأن العاقبة للمتقين فقد جاء في سور عديدة في كتابه العزيز فقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال سبحانه في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩]، وقال سبحانه في سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢]، وقال سبحانه في سورة القصص: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

ولقد نعى الله سبحانه على أولئك البعداء عدم تقواهم، ولو أنهم اتقوا الله تعالى لبقيت الإمامة لهم وفيهم؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣]، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة:١٢٤].

رشفةٌ ثالثةٌ:
التَّقْوَى غَايةُ العباداتِ وثَمَرتُها .. إذِ العباداتُ وَقودُها

فالتقوى هي عهد الله على المؤمن في كل عبادة من العبادات: قال الله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١]، بل الآية تعني أن عليكم أن تعبدوا الله لتكونوا من المتقين فالعبادة هي التي تغذي التقوى وتزيدها، والتقوى هي ثمرة العبادات وغايتها وكذلك فإن التقوى تزداد بالعبادات وتَتَّقِد فيها ومنها. وأول العبادات الصلاة وفرائض الله ﷻ.

وهكذا قال سبحانه في الصيام الذي افترض في سورة البقرة فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣].

أيها الحافظ: نقِّل بصرك بين كلمات الله تعالى... وافتح قلبك لسماع قول الله ﷻ ... وانظر فيما حفظت من قَبْلُ نظر المتدبِّر المتحسِّس للتقوى وكيف يحققها الله في العبادات وفي المواقف تحقيقًا... ويجعل التوفيق في القرار، والقبول للأعمال والأذكار مَنُوطًا بها.

كيف لا، وأنت مَنْ حَفِظَ سورة البقرة وحَفِظَ مما حَفِظَ فيها قول الله ﷻ:﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ

وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ۞ [البقرة:١٩٤-٢٠٣].

رشفة رابعة:
التقوى من الشهوة حتى القصاص، وما بينهما

وهكذا يشمل عهد التقوى حياة حافظ سورة البقرة كلها كما يشمل حياة الأمة كلها، فكل ظروف الحياة تنحصر بين القَتْل وبين الأُنْس وقد جمعَ اللهُ الطَّرَفينِ في سورة البقرة، وجعلهما مُقَيَّدَيْنِ بالتقوى وكما تعلم فإن أخطر لحظات الشدة هي القتل قصاصًا وقد قال الله ﷻ فيها ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة:١٧٩]، وأجمل لحظات الأُنْس البشري الجسدي هي لحظة الشهوة وإفراغها جسديًا بما أحل الله ومع هذا فقد قال الله ﷻ في لحظة الأُنْس هذه وهي الطرف المقابل لطرف القصاص: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٢٣].

ومن هنا نعلم أن تقوى الله يزداد بإقامة حد القصاص كما يزداد بممارسة الشهوة الحلال، وقد قال النبي ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»[1].

إذًا فإن العهد من سورة البقرة على حافظها أن يكون تقيًا في عبادة الله تعالى كلها، وليس العهد أن يكون تقيًا في فرائض الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحجٍّ وعمرة وإنفاق فحسب إنما هي تقوى الله في الحياة كلها، فإن العبادات المذكورة المفروضة إن لم تُنشئ تقوى الله سبحانه ليصبح المسلم تقيًا فإنها عبادات لا ثمر لها كالشجرة اليابسة النخرة لا خير فيها.

كيف والله ﷻ قد جعل القصاص ينشئ تقوى الله تعالى في الأمة الإسلامية كما

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

تنشئ الشهوة التقوى؛ فالجميع في تقوى الله في تنافس سواء في ذلك من أقر تشريعه وأمر به أو من قضى به، وكذا من يقيم، ومن يُقام عليه، ويشهد فيه، ومن يكون شاهدًا حاضرًا إقامة القصاص.

إن شجرة التقوى راسخة الجذور وارفة الظلال عظيمة الثمار .. تجدها أنَّى ذهبت في الحياة كما تجدها أنَّى تنقَّلت في سورة البقرة.

قال سبحانه في الأيمان: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٢٤]، وقال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة:٦٦]، ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال سبحانه في ختام آية الدين: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال سبحانه: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

الارتشافُ الثاني:
رشفةُ الخشوعِ في الصلاةِ[١]

لا ينبغي بل لا يمكن لحافظ سورة البقرة إلا أن يكون خاشعًا في صلاته: فإن ارتشاف الخشوع من سورة البقرة: يساوي احتمال بلل رأس من عَرَّضَ نفسه ماشيًا في العراء والسماء تهلُّه بالغيث المغيث.. بل سورة البقرة أعظم والله وأكثر بركةً، كيف وهو ما حفظها في صدره إلا ليتهجد بها في ليله، ويتعاهدها في ليله ونهاره بين يدي ربه سبحانه، ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]، ويسمعها إياه سبحانه راجيًا متوسِّلًا متقرِّبًا متزلِّفًا إلى ربه مباشرة بما جاء من ربه: «**وما تَقَرَّبَ عَبْدٌ إلى اللهِ ﷻ بِأَفْضَلَ ممَّا خَرَجَ مِنْهُ يعني القرآن**»[٢]، أي: كلامه الكريم ﷻ.

هكذا قال رسول الله ﷺ ومن أصدق من رسول الله ﷺ في العالمين. ألم يمرَّ علينا في سورة البقرة المباركة كيف ذَمَّ الله ﷻ قومًا أعظم الذمّ، حين ذكر أن آيات الله لا تتجاوز آذانهم، فلا هم يعملون بها ولا يؤمنون، فهم يأمرون بها دون أن يعملوا هم بها ... فأنَّى لهم أن يخشعوا ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٣ - ٤٤].

ثم ألا ترى كيف كان رسول الله ﷺ يستفتح قيامه بسورة البقرة خاصة، في كثير من الأحيان...؟ فما هذه الصحبة الفريدة بين رسول الله ﷺ وبين السورة الكبرى «سنام القرآن»؟

---

(١) ولقد كتبت في الخشوع كتابًا مستقلًا، وأسميته «قبس من الوادي المقدس»، ولكن الكتابة هنا هي ارتشاف الخشوع من كلام الله ﷻ والتدريب على ذلك، والحمد لله فإن ذاك الكتاب ليس ببعيد عن طريقة الموضوع.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٦١٤)، وضعفه الألباني.

ثم هل من صلاة خشوع أكثر من صلاةٍ في جوف الليل والنبي ﷺ يقول: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**»(١)، كيف قد غاب كل الخلق، والقلب متوحِّد بلقاء ربه سبحانه، والحافظ مكين في حفظه، ماهر في قراءته؟!

إنها الحالة الأرقى حتى بين الملائكة ... إنها الحالة التي تتمثَّل بعبدٍ من عباد الله وقتها يتهجد الآن. في هذه السويعات في الأرض في مكان كذا... في ظرف كذا... في خلوة كذا فإن النبي ﷺ يقول: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ**»(٢) فإن كان في صلاة وهو يظهر مهارته لربه سبحانه في حفظه وتمكنه وحسن تلاوته فإن له من المنافسة أعلاها .. وإن لم يدخل بجوار هؤلاء المنافسين الذين قال النبي ﷺ فيهم: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**»(٣).

وهل يُدَّخَرُ حسنُ الصوتِ لحفلات تأجير القراء للاستعراض، أو لإمامة تراويح مُسَعَّرة بتسعيرة .. ربما أفضت به لأن يكون أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة ..! هداهم الله وتاب عليهم ليتوبوا .. إنه هو التواب الرحيم. حيث يطوف فيها إمام التراويح أو القارئ على المساجد لصلاة التراويح، ويُحْجَز فيها من قبل، وتتعدد الحجوزات وهو يختار الأعلى دفعًا له وإن بَعُدَ مَنْآه!

فالخاشعون لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أبدًا .. فأخذ هؤلاء الثمن بهذه الطريقة شهادة عليهم من الله ﷻ مُسجَّلة في كتابه العزيز ذلك أنه لا يجتمع كونهم خاشعين لله مع كونهم يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، حيث يقول الله سبحانه: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩] حتى وإن بكوا وعلا تباكيهم، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:٤٤]، فإن الصادقين لهم

(١) رواه مسلم (١١٦٣).
(٢) رواه مسلم (٧٩٨).
(٣) رواه مسلم (٧٩٢).

همٌّ آخر، وإن القرآن هو من يعلمهم، وإنهم يرتجفون فرَقًا من حق القرآن عليهم، وأنهم يخشون أن يكونوا ممن يدفع القرآن في أقفائهم إلى جهنم، وأنهم يبكون وربما يغمى على أحدهم من البكاء وشدة الخوف إذا تذكروا أو ذُكِّروا بحديث أوَّل ثلاثة تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة، وهو حديث واضح وصريح «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[(١)].

عن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيبَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ فسمعته يقول: «**إنَّ القرآنَ يلقَى صاحبَه يومَ القيامةِ حينَ ينشقُّ عنْهُ قَبْرُهُ كالرَّجُلِ الشاحبِ، يقولُ لَهُ: هلْ تعرفُنِي؟ فيقولُ: ما أَعْرِفُكَ. فيقول له: أنا صَاحِبُكَ القرآنُ الَّذِي أظمأتُ نهارَكَ وأسهرْتُ ليْلَكَ، وإنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تجارَتِه، وإنك اليومَ من وراءِ كلِّ تجارةٍ، قال: فيُعطى المُلكَ بيمينه والخلدَ بشماله، ويوضعُ على رأسِه تاجَ الوقارِ، ويُكْسَى والداه حُلَّتين لا يقوم لهما أهلُ الدنيا، فيقولان: بِمَ كُسِينا هذا؟ قال: فيقالُ لهما: بِأَخْذِ ولدِكُمَا القرآنَ، ثم يُقالُ له: اقرأْ واصعدْ في دَرَجِ الجنةِ وغُرَفِهَا، فهو في صعودٍ ما دامَ يقرأُ هَذًّا كان أو ترتيلًا**»[(٢)]. هذا حال أناس أعطوا القرآن حقه وصبروا

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) رواه أحمد في المسند٣٩٤، وابن ماجه في السنن٣٧٨١.وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٨٢٩.

على الشدة، والفقر، والابتلاء، ولم يشتروا به ثمنًا قليلًا. فكيف بالذين لم يعطشوا هم في الدنيا وإنما جعلوا القرآن الذي يحملونه عطشانَ، وناموا ملء جفونهم واستراحوا واستراحت جنوبهم، بينما أرَّقوا القرآن وأجهدوه، حيث لم يسهروا إلا على أهوائهم، ولم يدافعوا عن القرآن كله، بل قَطَّعوه وجعلوه عضين ليَسْلموا هم!

وعن معاذ بن أنس الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ القرآن وعمل بما فيه؛ أُلبس والداه تاجًا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟**»[1]. وإنا والله لنشفق على أصحابٍ لنا قد أوغلوا في هذا السبيل حتى ذهبوا في تبرير الشراء مذهبًا بعيدًا ... وذهبت عن وجوههم نضارة القرآن ونوره، ونُزِع من كلمتهم التأثير، وانصرف الصادقون حتى عن الاستماع إليهم وهم مازالوا يمنُّون أنفسهم بما يحفظون وإن ذهبوا عن حقه كل مذهب .. حتى أنهم أصبحوا علامة ظاهرة من علامات الساعة، وهم سادرون ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فعن جبير بن نفير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «**هذا أوانُ يُختلسُ العلمُ من الناس حتى لا يَقْدِروا منه على شيء**»، فقال زيادُ بنُ لبيدٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟! فوالله؛ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نساءنا وأبناءنا، قال: ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لَأَعُدُّكَ من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؛ فماذا تغني عنهم؟! قال جبير: فلقيتُ عبادةَ بنَ الصامتِ، فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بأول عِلْمٍ يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجامع؛ فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا[2]، وهكذا يحقق الله عز وجل في أصحاب سورة البقرة كشف هذه الغربة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٠٤٢.

(٢) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، حمود ابن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري، (٢/ ٧٥)، رواه: الترمذي، والحاكم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي في «تلخيصه».

وعن بشير بن أبي عمرو الْخَوْلَانِيِّ: أن الوليدَ بنَ قيسٍ التُّجِيبِيَّ حَدَّثَهُ: أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَكُونُ خَلْفٌ مِنْ بَعْدِ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ**»، قَالَ بَشِيرٌ: فَقُلْتُ لِلْوَلِيدِ: مَا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ، فَقَالَ: الْمُنَافِقُ كَافِرٌ بِهِ، وَالْفَاجِرُ يَتَأَكَّلُ بِهِ، وَالْمُؤْمِنُ يُؤْمِنُ بِهِ[(١)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن شريك عن أبي اليقظان عثمان بن عمير عن زاذان أبي عمر عن عليم؛ قال: «كنا على سطح، ومعنا رجل من أصحاب النبي ﷺ (قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفاري)، فرأى الناس يخرجون في الطاعون، قال: ما هؤلاء؟ قال: يفرون من الطاعون، قال: يا طاعون خذني، فقالوا: أتتمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ**»؟! فقال: إني أبادر خصالًا سمعت رسول الله ﷺ يتخوَّفهُنَّ على أمته: بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم؛ ليس بأفقههم ولا أفضلهم؛ إلا ليغنيهم به غناء، وذكر خُلَّتَيْنِ أخريين.

قال ابن كثير ﷺ: «وهذه طرق حسنة في باب الترهيب». انتهى[(٢)].

وقد رواه البخاري في «التاريخ الكبير» من حديث ليث عن عثمان عن زاذان سمع عابسًا الغفاري رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يتخوفهن على أمته من بعده: إمارة السفهاء، وبيع الحكم، واستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وكثرة الشُّرَطِ، ونَشْوٌ يتخذون القرآن مزامير يتغنَّون غناء؛ يُقَدِّمون الرجل ليس بأفقههم ولا بأعلمهم، لا

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١١٦)، رواه: الإمام أحمد (١١٣٤٠)، وابن أبي حاتم، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في «تلخيصه».

(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٧- ١١٨).

يقدمونه إلا ليتغنَّى بهم»[١].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن نقتري، فقال: «**الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر، وفيكم الأبيض، وفيكم الأسود، اقرؤوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم؛ يتعجَّل أجره ولا يتأجَّله**»[٢].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما أنه مَرَّ على قارئ يقرأ ثم سأل، فاسترجع ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ القرآن؛ فليسأل الله به؛ فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس**»[٣].

فأي مجازفة هذه حتى وإن ضعف الحديث الأول، وكل إنسان أعلم بنفسه والاحتياط للنفس في الآخرة هو المتحتِّم، وهكذا قال الله سبحانه في الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

(١) المصدر السابق (٢/ ١١٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٢٢)، رواه أبو داود وإسناده حسن.

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٢٤)، رواه الإمام أحمد، والترمذي، وقال: هذا حديث حسن.

رشفةٌ أولى: العينُ الساقيةُ للخشوع.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥]

أيها الحافظ: لعلك تسأل بعد هذا وأين العين التي ارتشفت منها في سورة البقرة سر الخشوع؟

والجواب: كل آية من آياتها الكريمة فيها سر خشوع يحرك جمود القلوب ويفجِّر أحجار جبالها أنهارًا تتفجَّر، أو يشقِّقها ويشقِّق طبقاتها حتى يخرج منه الماء، بل إن كان حجرًا أصم جافًا في رؤوس الجبال هبط من خشية الله من عليائه، وإنها والله لحق، والله سبحانه يثير غيرة الإنسان أن يخشع فكيف بأهل القرآن؟! فقال سبحانه في سورة البقرة نفسها: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤]، ولكن ألم يأمرنا الله ﷻ في سورة البقرة فقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥، ٤٦].

هذا دواء الله ﷻ لأغلظ الناس قلوبًا... فكيف لا يكون دواءً لأرحم الأمم قلوبًا وألين الناس أفئدة وأكثرهم تواضعًا وألفة... وأرحم أهل الأرض بكل من في الأرض؟!

ثم إن الله ﷻ ذكر أن الصلاة كبيرة وثقيلة على قلوب الناس عامة، ولا تكون خفيفة ومُخَفِّفَة وراحة ومريحة إلا على الخاشعين في صلاتهم... وهل تكون الصلاة إلا بالقرآن.. وهل من شاهد على أن الصلاة خفيفة ومريحة أكبر من القيام بالسورة الأكبر في القرآن كاملة في ركعة واحدة أو مجزأة على ركعات في ليلة أو حتى على ليال...؟!

وليس تطويل الصلاة غاية... بل الخشوع والقنوت هو الأساس، ألم تقل أم المؤمنين عائشة عن صلاته ﷺ ركعتي سنة الصبح: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فَيُخَفِّفُ، حَتَّى إِنِّي أَقُولُ: هَلْ قَرَأَ فِيهِمَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ؟** (١). فلا يعوقنك الشيطان عن الاستمرار بدعوى أنك إما أن تطيل وإلا فلا! فتقطع، وتمل والله لا يملّ حتى يمل العبد.

فالجامع بين الاثنين هو حضور القلب وخشوعه وربنا سبحانه يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢]، أليس مما حفظناه في سورة البقرة قوله سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٣٩].

سبحان الله؛ ماذا يصنع كلام الله في القلب ليلًا، وربنا ينبِّهنا لهذه الحقيقة العميقة فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل:١-٦]، إنه لأمر عظيم أن يكون وطء القرآن على القلب أشد وتأثيره أعمق وأثبت في ناشئة الليل، مع أن الله ﷻ يقول عن القرآن كله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزمر:٢٣]، ورغم كل هذا فقد جعل الله ﷻ في الليل سرًا للقلب لتفتيح أبوابه ومشفَّراته، وتليين قساوته ومُسنَّناتِه، وجَعَلَ سبحانه للملائكة بالليل سياحة خاصة مع هؤلاء السائحين في ظلمات الليل من غير ما ترى أعينهم أي شيء حتى قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ، فَتَسَمَّعَ لِقِرَاءَتِهِ فَيَدْنُو مِنْهُ**» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا «**حَتَّى يَضَعَ فَاهُ**

(١) رواه البخاري (١١٧١)، ومسلم (٧٢٤)، واللفظ له.

عَلَى فِيهِ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلَكِ، فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلْقُرْآنِ»[(١)]، ومع هذا فلسورة البقرة وضعية خاصة بالليل، فَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ**»، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ: «**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «**تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ**»[(٢)].

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَشْيَاخَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ حَدَّثُوهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قِيلَ لَهُ: أَلَمْ تَرَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ لَمْ تَزَلْ دَارُهُ الْبَارِحَةَ تُزْهِرُ مَصَابِيحَ؟ قَالَ: «**فَلَعَلَّهُ قَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ**»، قَالَ: فَسُئِلَ ثَابِتٌ، فَقَالَ: قَرَأْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ[(٣)].

وإنها لمعادلة واضحة هذه التي بيّنها الله ﷻ للخشوع في الصلاة في سورة البقرة في هذه الآية المباركة فقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

والمعادلة كاملة المقدمات والنتائج، فالصلاة كبيرة أو ثقيلة على جميع الناس وعلى جميع المصلين... باستثناء الخاشعين من المصلين.. ولا يمكن لهؤلاء أن يكونوا خاشعين في صلاتهم مالم يكونوا مستحضرين لقاء ربهم ﷻ... فالرجوع إلى

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢/ ٢١٤) حديث رقم (٦٠٣)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص (٢٧)، وقال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر الحديث: هذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهامًا وهو مرسل.

الله يوم القيامة هو مُلْهِمُ خشوعهم، ومُلِّين قلوبهم، فتفهم القلوب كلام الله تعالى إذ هي بين يدي الله ﷺ فاللقاء هناك قد استُحضر في اللقاء في الصلاة أجل وأعظم استحضار، وكلام الله هنا قَرَّب كلام الله ﷻ المباشر لعبده هناك.. فأصبح المصلي في ذاك المشهد الأعظم وهو مازال حيًّا على هذه الأرض... التي لا يجد فيها نظيرًا للقاء ربه ﷻ مثل صلاته اليوم بين يديه، ومع هذا فليس مصدر الخشوع في الصلاة هو يوم القيامة واستحضار ما فيه من أهوال فحسب - وإنه والله لعظيم - لكن مصدر الخشوع الأعظم إنما هو لقاء الله يوم القيامة... هو اللقاء الذي جعل الله زمانه يوم القيامة ... وهل يوم القيامة على عظمته إلا مخلوق؛ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

فاللقاء باللقاء، والكلام بالكلام، وما يثور من محاسبة النفس والتي عادةً ما تحضر في هذا اللقاء ومعها عظيم الحياء من الله على ما قصَّر العبد القائم أو عصى إذ هو يستحضر محاسبة الله العبد هناك.. وخوف المصير هنا مما عمل الإنسان في الدنيا ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر:٤٧].. كل ذلك يحضر بين يديك خوف حكم الله هناك ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد:٤١]. وهكذا وهكذا... وكلما ازداد اليقين بكل موقف في الآخرة ازداد الخشوع في الصلاة، وهذا بعض ما حواه قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

فلا يذهبنَّ بك الاستغراق في عظمة ذلك اليوم عن عظمة الله سبحانه الذي تقف الآن بين يديه في هذه الليلة أو هذا اليوم من أيام حياتك؛ هنا يظهر الإيمان بالغيب ودرجته، بل هنا يظهر أثر كلام الله وتنزله ليلًا على هذا القائم أو ذاك .. والله على كل شيء شهيد ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[يونس:٦١] ... إن لمجرد ذكر لقاء الله ﷻ مهابة لا يكون لأي شيء آخر مثل وقعها أبدًا ولا قريبًا منها. فختام الكهف بقوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وفي سورة الزمر قال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر:٧١]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت:٥٤].

فإذا كان لقاء الله سبحانه إذا استحضره المؤمن أثناء جِماعِهِ أهله فيثمر التقوى ويزيدها .. فكيف لا يكون كذلك وأضعاف ذلك وهو في الصلاة ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦]، وأجواء الصلاة كلها مقرّبة للقاء الله من كل جهاته.

وبهذا نعلم أن حفظك سورة البقرة إنما هو إنشاء لعلاقة جديدة مع رب العالمين، وأنها علاقة يجتمع فيها القلب الواعي، والصدر الحافظ، والبدن الطائع، «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وأنه كما يزداد الحفظ بالتكرار تمكنًا، ويزداد البدن تذللًا وطاعة وطواعية ومسارعة وتحملًا، فإن القلب يزداد خشوعًا وخشية، ويزداد فقهًا وقربًا واقترابًا ثم يزداد سكينة وراحة، ويزداد تلذُّذًا وتشرُّبًا، ويزداد تشوُّقًا للقاء جديد، كما يزداد اشتياقًا للقاء ربه والنظر لوجهه الكريم ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣] ومن دعاء من جعل الله قرَّة عينه في الصلاة ﷺ: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ،**

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[1]، وهكذا على مدى الأيام والأعمار، وبحور سورة البقرة تفيض.

ثم إنه إذا خَفَّ قيام الليل بسورة البقرة وخَفَّت صلاة النهار بها بعدما كانت كبيرة فكيف لا تخف صلاة السنن الراتبة... بل كيف يمكن أن يفوِّت الحافظ اثنتي عشرة ركعة وهي الأقساط اليومية لبيتٍ عند الله لا يعلم عظمته إلا الله رب العالمين جعله الله لمن يحافظ عليها كل يوم...

وكيف تثقل صلاة الضحى على صاحب سورة البقرة... كيف لا وأقلها ركعتين خفيفتين وأكثرها ثمان؟ وهذا بعض بركة سورة البقرة.. ألم يقل النبي ﷺ: «**اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ**»[2]، وهكذا تغيَّر العبد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وهكذا تصنع الحياة.

هكذا يكون العبد مِنْ بَعْدِ حفظ سورة البقرة كأنه غير ذلك العبد من قبل حفظها... هكذا أصبح عمله ديمة... وصلاته ديمة.

هكذا يصبح مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر .. باسطًا يده بالخير قانتًا لله رب العالمين.. له سمْته، وعليه تواضعه وخُلُقه، وهكذا تشهد ملائكة السماء كل وقت آناء الليل والنهار صعودَ عمل صالح منه إلى ربه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وأي كلمٍ طيب أطيب من كلام الله تعالى، وأي عمل صالح أفضل من الصلاة؟!

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٨٠٤).

وهكذا يصبح هذا الطارق أبواب السماء معروفًا عند أهل السماوات وهم له شهود عند الله ﷻ في الدنيا والآخرة، وكل هذا التغيير من بركة سورة البقرة التي باشرت قلبه، وبعثت هِمَّته، وثوّرت عمله، وبسطت يده، وألانت خلقه.. ألم يقل النبي ﷺ: «**فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ**».

رشفةٌ ثانيةٌ:
ما علاقةُ الرشفةِ بالخشوعِ؟

والجواب: لا علاقة إلا بالخشوع .. فالصلاة بغير خشوع كالنهر الذي غار ماؤه كليًّا أو جَفَّ جفافًا تامًا، فمن أين يرتشف العطشى ... أم أنهم يرتشفون طينًا؟!

فبقدر ما يكون الخشوع عظيمًا بقدر ما يكون الارتشاف كثيرًا ومثمرًا بإذن الله تعالى. وأنت في صلاتك تقرأ آيات الله ﷻ وكلماته والله ينزل عليك ما يشاء من الخشوع ومعه المعاني التي تغذِّي إيمانك، وتغيِّر حياتك، وتُثري عقلك بالخيرات، وتبني يقينك بناء، وتزيد إحسانك فتعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. هذه هي الرشفات بل هذه ثمراتها. فهذه المشاعر التي تتنزَّل عليك في الصلاة، أو تثور في صدرك وأنت تقرأ القرآن خارج الصلاة، هي المصدر الذي ترتشف منه، وأحيانًا تسبقها الرشفة بفضل الله إذ تكون مادة الارتشاف هي سبب الخشوع والله سبحانه هو من يحكمها ويدبِّرها ويقدِّرها ويتولَّاها ويتولَّى قلوب عباده الصالحين، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[1].

نعم احرص على قراءة البقرة كاملة .. واحرص على قراءة وردك من القرآن كاملًا ... ولكن إذا ما تفجَّرت عين الخشوع عندك من آية من آيات الله فاستجب وتجاوب وعش ما أنت فيه، فإن ما قمت لأجله قد جاءك باكرًا أو آخرًا ... فخذ نصيبك مستبشرًا وواصل الاغتراف مركزًا مكررًا، وأكمل وردك بعد ذلك حسب ما وضعت لنفسك .. سواءٌ من ليلٍ أو نهار.

أرأيت ما مرَّ عليك في صلاتك عن حالات تطفح على ظاهر رسول الله ﷺ، من رعدة أو رعشة، أو بكاء، أو صوت من التسبيح، والاستغفار، والاستعاذة والدعاء

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

وهو يقرأ القرآن، أو أزيز يخرج من صدره كأزيز المرجل، فهذا هو المطلوب، بل بعض هذا هو المطلوب .. وهو المَعينُ الثرُّ[1] للخشوع، وهو النهر الفرات الرقراق للارتشاف .. ومثل هذا هو الارتشاف الحق بالنسبة لنا.

أتدري أن هذا الارتشاف إلى الخشوع هو بالنسبة للعباد المؤمنين مثل الوحي بالنسبة للأنبياء عليهم السلام فالمؤمنون هم أتباع الأنبياء عليهم السلام وجبريل عليه السلام لا ينزل بالوحي رسالة أو نبوَّة إلا على الرسول أو النبي، لكن ما ينزله على المؤمنين من خيرٍ فهو من الخير الذي أوحاه لنبيهم عليه السلام ولا علاقة له بوحي الرسالة.

ولا أحد يملك أن يحدَّ لله حدًّا فالله يفعل ما يشاء والله يصطفي من يشاء ويختار والله يوحي بما يشاء لمن يشاء من عباده كيفما يشاء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

وقال سبحانه في سورة الشورى بشكل واضح ومطلق وصريح والله يفعل ما يشاء ويختار، فقال سبحانه: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[الشورى:٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل:٦٨].

ولا يقولَنَّ أحد:إن وحي النحل هو ما ألقاه في الفطرة .. فهذا معروف ومُسَلَّم به، لكن الله سمَّاه وحيًا، ثم كيف يستكثر أن يوحي الله سبحانه في الصلاة بمعنى يلهم عبده من فيوض العلم والنور والهدى .. ما يناسب المقام ويناسب النجوى ... وكل ذلك في الأساس من أثر كلامه العظيم، ومن سبْق فضله العظيم سبحانه.

حين تَعْلَم يا حافظ سورة البقرة أن القيام بغير خشوعٍ وارتشافٍ إنما هو قسوة وجفاف يعزّ عليك حالك، وتضيق عليك نفسك والأرض بما رحبت، ولا تطيق العيش في هذا الضيق .. فلا حول ولا قوة إلا بالله، وهنا تلجأ إلى الله عز وجل اللجوء الحق

(١) ثرٌّ: كثير الماء. لسان العرب.

.. لجوء الصدق فيكون الفرج، ويكون هذا مفتاح الأبواب إذا أقفلت دون قلبك فاحفظه بل لا تدعه يغلق أبدًا.

ولنعلم أن الحفظة متساوون ربما في الحفظ ومتساوون في القيام ... وإلا كيف تنزَّلت مواكب الملائكة على أسيد بن حضير وهو يقوم الليل بسورة البقرة.

ولولا ارتشاف القلب والروح لما توقَّف الصحابي عند ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤] ليلة كاملة يردِّدها .. ألم يكن يحفظ غيرها؟! ولولا أن روحه قد أحبت وهامت في سورة الإخلاص لما توقفت هنا .. ولما فتح الله له فيها من العيون .. ولما ارتشفت فتلذَّذت وذاق قلبها حلاوة فيها أذهلته عن كل حلاوة، ولهذا أعطاها الله ﷻ عطاءً لا يتصوَّره بشر .. وأول ذاك العطاء هذا الارتشاف من هذه العين العذبة الساقية وهذا البحر الفرات ذي الأوساع والأعماق اللامتناهية، وبهذا الارتشاف تكوَّنت علاقات مع سور القرآن الكريم، ولولا تلك العلاقة ما استجاب الصحابة تلك الاستجابة الهائلة حين نودوا في وادي حنين بسورة البقرة، ولأجل هذه العلاقة مع سورة الإخلاص كان ما رواه أبو أمامةَ الباهليُّ رضي الله عنه، قال: أَتى رسول اللهَ ﷺ جبريلُ عليه السلام وهو بتبوك، فقال: يا محمدُ اشهدْ جنازةَ معاويةَ بنِ معاويةَ المزنيِّ، قال: فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ ونزلَ جبرائيلُ في سبعين ألفًا من الملائكة فوضع جناحَه الأيمنَ على رؤوسِ الجبالِ فتواضعتْ، ووضعَ جناحَهُ الأيسرَ على الأرضينَ فتواضعتْ حتى نظرَ إلى مكةَ والمدينة، فصلى عليه رسولُ الله ﷺ وجبرائيلُ والملائكةُ عليهم السلام فلما فَرَغَ قال: «يا جبريلُ بمَ بلغَ معاويةُ هذه المنزلةَ؟» قال: بقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قائمًا وقاعدًا وراكبًا وماشيًا[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ

(١) أخرجه الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٢٧٨)، وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان في ترجمة محبوب بن هلال (٥/ ١٨) بعد أن ذكر هذا الحديث: وحديثه علم من أعلام النبوة وله طرق يقوى بعضها ببعض، والحديث إسناده حسن.

مَاتَ مُعَاوِيَةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيُّ، أَتُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَضَرَبَ بِجَنَاحَيْهِ فَلَمْ تَبْقَ شَجَرَةٌ، وَلَا أَكَمَةٌ إِلَّا تَضَعْضَعَتْ، وَرَفَعَ لَهُ سَرِيرَهُ حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ وَخَلْفَهُ صَفَّانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي كُلِّ صَفٍّ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «**يَا جِبْرِيلُ مَا بَلَّغَ هَذَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ مِنَ اللهِ؟**» ، قَالَ: بِحُبِّهِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَقِرَاءَتِهِ إِيَّاهَا جَائِيًا وَذَاهِبًا وَقَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى كُلِّ حَالٍ[1].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ: بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَإِمَّا تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا، وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: «**يَا فُلاَنُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ**»، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ**»[2].

ولنعلم أن ما من سورة لها فضيلة مخصوصة إلا كان لها من المؤمنين من رغب فيها أكثر، وعمل لها برنامجًا مخصوصًا في حياته وأقام معها علاقة مخصوصة، وهذا أثر طبيعي تجاوبًا مع الفضيلة التي ذُكرت لها؛ وإلا فَلِمَ ذكر النبي ﷺ لهذه السورة أو تلك خصوصية، وكم لسور القرآن العظيم من خصائص؟!

ينزل الله الخشوع من عنده على من يشاء ممن استحق ذلك من العباد، كما ينزل السكينة وينزل الطمأنينة على المؤمنين مع نبيهم وبعده.

وينزل الله ﷻ على رسوله ﷺ وهو يصلي ويقرأ كلامه العظيم، ما يهتزُّ له كيان

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٤٢٨)، رقم (١٠٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٥٥).

رسول الله ﷺ كما ارتعدت فرائصه يوم أن جاءه الوحي أول مرة وينزل عليه ما يشاء إذ هو في صلاته فالصلاة ميدان آخر غير وحي الرسالة أو الوحي بنزول القرآن، بل هي صعود القرآن الآن من العبد إلى صاحب الكلام .. وهذا ما يشترك فيه عامّة العباد .. وهذا ما يفترق فيه عبد عن عبد ويتفاوتون .. وهذا ما يفارق بين الناس بالعطاء النازل عليهم من رب العالمين نورًا ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البقرة:٢١٢] .

ولقد أَخذَ الخشوعُ يومًا رسولَ اللهِ ﷺ حتى انتهت قراءته القرآن عند آية معينة لم يستطع أن يتجاوزها .. بل انقطع عن سواها .. وأخذ يهتف ذاكرًا أمته وخصوصًا ممن يأتي بعده.

ولما كان الأمر عند رسول الله ﷺ في المنتهى من الاهتمام، وبلغ به الأمر أن يدعو به الله ﷻ بذات كلام الله الذي أنزل عليه، وأخذه الأمر حتى استغرق كل صلاته .. وحالة لا نعلمها منه ﷺ ومن قلبه وتفكيره فقد جاءه الجواب قبل أن يطلع عليه الفجر.

عن جَسْرَةَ بِنْتِ دَجَاجَةَ، قَالَتْ: خَرَجْنَا عُمَّارًا فَوَرَدْنَا الرَّبْذَةَ فَأَتَيْنَا أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه :صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ الْعِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَلَمَّا تَكَفَّأَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ رَجَعَ إِلَى مَقَامِهِ فَجِئْتُ فَقُمْتُ خَلْفَهُ قَبْلَ أَنْ يَرْكَعَ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَدِهِ فَقُمْتُ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَقَامَ خَلْفَنَا فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ فَقَامَ عَنْ شِمَالِهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ يَتْلُو آيَةً وَاحِدَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ بِهَا وَيَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا يَدْعُو حَتَّى أَصْبَحَ ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ اللَّيْلَةَ كَذَا وَكَذَا، فَلَوْ سَأَلْتَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ رضي الله عنه : بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُمْتَ اللَّيْلَةَ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ بِهَا تَرْكَعُ وَبِهَا تَسْجُدُ وَبِهَا تَدْعُو، وَقَدْ عَلَّمَكَ اللهُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، قَالَ: «**إِنِّي دَعَوْتُ لِأُمَّتِي**».

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه : أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقَّ الْفَقِيهِ: مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ

مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مَكَرَ اللهِ، وَلَمْ يَتْرُكِ الْقُرْآنَ إِلَى غَيْرِهِ، أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهٌ، وَلَا خَيْرَ فِي فِقْهٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ.

وَكَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: لَوْ أَنِّي أَكُونُ كَمَا أَكُونُ عَلَى حَالٍ مِنْ أَحْوَالِي ثَلَاثًا لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا شَكَكْتُ فِي ذَلِكَ؛ حِينَ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ، أَوْ أَسْمَعُهُ يُقْرَأُ، وَإِذَا سَمِعْتُ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِذَا شَهِدْتُ جِنَازَةً، وَمَا شَهِدْتُ جِنَازَةً قَطُّ فَحَدَّثْتُ نَفْسِي سِوَى مَا هُوَ مَفْعُولٌ بِهَا وَمَا هِيَ صَائِرَةٌ إِلَيْهِ [1].

(١) مختصر «قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر»، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ)، اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقريزي، الناشر: حديث أكادمي، فيصل آباد – باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

الارتشافُ الثالثُ:

صاحبُ سورةِ البقرةِ مِن البررةِ

رشفة أولى: آية البِرّ وما أدراك ما آية البِرّ؟

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

لا أحسب – والعلم عند الله ﷻ وحده – أنَّ ثَمَّ تفصيلًا جامعًا للبر في آية واحدة مثل ما في آية البر وهي التي حفظناها جيدًا ولكننا إذا ما مررنا بها فإن الكثيرين منا يخطفونها خطفًا في نَفَسٍ واحد..! وما أحسن التؤدة والتدبر والمحاسبة عندها حتى تتشربها قلوبنا تشربًا... فإنها على سعة ما فيها إلا أنها سهلة ميسرة ككل القرآن.. بل لا تحتاج أن تفتح لها كتاب تفسير... ولذا فإن المعنى العميق الذي فيها لا يفرق بين قارئ وقارئ... إنما هو الإيمان الذي ابتدأتْ به آية البر، ومن بعده يظهر التفاوت في كل عمل من الأعمال، كما يظهر في التزام أي عمل من الأعمال وتَحَوُّلِهِ صاحبًا، كما تتحوَّل سورة البقرة إلى صاحب، وهكذا كل خلق من الأخلاق فيها يصبح صاحبًا؛ فيُقال مثلًا: صاحب كرمٍ، وصاحب وفاءٍ، وصاحب صدقةٍ، وصاحب قيامٍ، وصاحب نخوةٍ، ثم يرقى فيصبح صاحب خُلُقٍ يلتزم الحافظ خُلُقه كما يلتزمه خَلْقه... قد أخذه من سورة البقرة أَخْذَ الصاحب خُلُقَ صاحبه أليس الصاحب ساحبًا.. ألم يقل الله ﷻ عن سبب عبادة بلقيس – رحمها الله – للشمس أن قومها كانوا يعبدون الشمس فقال سبحانه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل:٤٣].

رشفةٌ ثانيةٌ:
المرتشِفُ مِن هذه الآيةِ سَابِقُ أَقْرَانِهِ

هذه الآية الكريمة عهد بين العبد وبين ربه سبحانه... نعم إن الناس يتفاوتون في مراتب كل عمل من الأعمال العظيمة في هذه الآية لدرجة أن البعض لا يستطيع أن يزيد على قدر الواجب من العمل درجة واحدة فقط... إلا أن هذا القدر لو نقص فسوف يؤاخذ عليه المسلم أي مؤاخذة.

أما صاحب سورة البقرة فإن هذا العهد هو عُدَّته ومنه زاده، وهذا البر ميدانه الرحب لممارسة سلوته ومنافسته، وهو فرصته لسبق أقرانه الذين كانوا معه في سباق الخير كَفَرَسَيْ رِهان، بل وسبق آخرين تقدَّموه من قبل، وهو لا يزال يقدِّم ويتقدَّم ولعله لا يعلم أنه عند الله قد تقدم، وبين الفينة والأخرى ينتزع صدارة البر في جانب من الجوانب وعمل من الأعمال وهكذا... والفرص تأتيه كما تأتي غيره لكنها في وقتها تُذْهِبُ وَهَلَ الناس، وتطيش موازينهم، وثمار عقولهم، وتأسرهم تفاصيل الموقف وجزئياته فيقعدون.. وهنا يبرز من بين الأقران طالب السبق هذا.. إذ يحجم آخرون فيتقدم هو، ويمسك آخرون ويبسط يده بالخير هو، ويشتد خصام المقابل له فيفجر في خصومته فيبدأه بالسلام هو، وتقطعه الرحم والأرحام وتكشحه ويصلها بنفسه وماله وولده هو، ويغضب الآخرون ويرمونه في نفسه وعرضه ويحلم هو، بل يعفو ويغفر ويصفح، ويسخط ويتسخَّط آخرون على أقدارهم ويلزم الصبر والرضا هو، ويأتي الموقف العصيب فيتزلزل الأقران ويتزحزحون عن مواقعهم ويثبت ويشمخ ويعلو هو، ويشتد الأمر فتذهب الظنون بالناس كل مذهب وهو لا يتجاوز إحسان الظن، ويعتذر في ساعة العسرة المتخلفون القواعد من الرجال وينبعث من ظروفه هو وهكذا وهكذا...

ولا يرضى حافظ سورة البقرة بغير هذا، وإلا كيف استَحَقَّ اسمَ صاحبِها، وما ثمن صحبتها، وأنه قد أصبح من أهلها؟!

وبهذه الآية الكريمة الشاملة لأعمال البرِّ كلها يكون حافظ سورة البقرة قد جمع نوعيةً خاصة مِنَ الصالحات لا نظير لها في الميزان الإلهي العظيم، إنها أثقل شيء في الميزان والتي قال فيها النبي ﷺ: «**أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ**»(١)، وهي مزيِّة الأنبياء وقاسم رسالتهم العملي المشترك ورسول الله هو خاتمهم ﷺ فقد أبقى الله له التمام والكمال فقال ﷺ هنا: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ**»(٢).

إن هذه الآية بالنسبة لكل مسلم قارئ للقرآن بشكل عام، ولمن حفظ سورة البقرة بشكل خاص إنما تمثل بناءً كاملًا متكاملًا لحياته...وكم في هذه الآية الكريمة من رشفة من كلام الله تتحوَّل إلى عهد وميثاق فتكون هي فرصة الحافظ أن يوثق مع ربه سبحانه بشكل منقطع النظير، وإنها تمثل بالنسبة لحافظ سورة البقرة عهدًا مع الله سبحانه حيث ترتقي به إلى مقام الإمامة في أخلاقه ويكون قدوة في كل أحواله وأعماله وتقلباته... لا يحيد عن ذلك أبدًا، وإن حاد... أسرع وعاد، وبهذا تكون قد نالته دعوة إبراهيم عليه السلام واختيار رب العالمين فكان إمامًا ولم يكن من الظالمين، إذ يقول الله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة:١٢٤]، ثم إن هذه الخصوصية له وهي حقًا عليه بل حقًا له لحفظه السورة، وأنه أحق الناس بالعمل بها، وأنه محاسب على ذلك عند الله سبحانه وعند الناس، وحماية للإسلام وللقرآن ولسورة البقرة خشية أن يُنقض الإسلام من خلاله. وتبقى لهذه الآية علومها وعهودها، ومواثيقها، وغذاؤها، وزكاؤها، وزكاتها، وفيها والله العجب العجاب، وإنما أريد هنا رشفات القلب المتبرد، والروح الحرَّى من غيوث أحرفها الكريمة ... ليس إلا.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٨١)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٧٣)، وقال الألباني في الصحيحة (٤٥): وهذا إسناد حسن.

رشفةٌ ثالثةٌ:

مِن مَعينِ قولِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾

فالمسلم لا يتخذ المشرق والمغرب وجهة، وتولية الوجوه إنما مقصودها أكبر وأوسع من الاتجاه للقبلة في الصلاة فحسب، وسبب النزول على فرض صحته فيها لا يقيد المعنى المقصود بالآية وما تشمله، ثم إن عدم تولية الوجوه نحو المشرق والمغرب إنما يعني اتخاذ الوسط الذي هو الحق المبين.. وهو ما جاء في قول الله ﷻ في سورة النور: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور:٣٥] وحين نقول: إن هذه الاستقامة أمرٌ ملازم لكل مسلم من المسلمين، فإن هذا مما يقرأه كل مسلم مُصَلٍّ في صلاته ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧] إلا أننا نخص أكثر قارئ سورة البقرة من بين عموم المسلمين، لأنه حافظها وحقها عليه أعظم، وفهمها عنده أكبر ومرورها به أكثر، وغفلته عنها وهو في هذا الحال أقبح، وأنها صريحة في أن المسلم لا توجه له إلى قِبلات الآخرين لأنه هو الوسط كيف وقد جاء هذا في سورة البقرة واضحًا كذلك.

وخير ما فُسِّر به كلام الله تعالى هو كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

وعليه فإن العهد الذي يتخذه الحافظ على نفسه هو العمل بهذه الكلمة أولًا وهو أن يحدد مركزه الوسط ولا شيء سوى الوسط والوسطية... فلا ميل حتى في داخل الأمة لتوجهات فِرَقٍ هنا وأخرى هناك وإنْ زَعَمَتْ كل واحدةٍ أنها الفرقة الناجية... وكما قال النبي ﷺ: «**عَرَفْتَ فَالْزَمْ**»(١).

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣٦٧)، وضعفه الألباني.

رشفةٌ رابعةٌ:

مِن مَعِين قولِهِ سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾

لا شك أنه لولا الإيمان بالله ما دخل المرءُ الإسلامَ ولا عرفَ البرَّ ولا أعماله... ولهذا فإن المقصود الخاص بالإيمان هنا هو شيء آخر غير الإيمان العام الشامل، ألا ذلك هو اشتراط الإيمان المخصوص قبل كل ما سيذكره الله سبحانه مما سيأتي؛ فالإيمان لم يذكر إلا مرة واحدة في الآية، ولم يذكر إلا هنا في صدر الآية فهو الأصل، وهو النية، ومنه يكون التحقق فالانطلاق، فالإيمان الخاص شرط في قبول كل عملٍ من الأعمال القادمة، واستحضاره في كل مرة شرط، والإقدام على العمل بهذا الإيمان الخاص شرط ليكون عند الله برًا، ومثل هذا الإيمان الخاص ما ورد في عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ من أشهرها «**مَن صَامَ رَمَضَانَ، إيمَانًا واحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**»(١)، وحديث «**مَن قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إيمَانًا واحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**»(٢)، وقال ﷺ: «**مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ، إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ**»(٣)، وقال ﷺ: «**مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَانًا بِاللهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٤) فليس البرّ أي مقام ...

إن الإيمان المطلوب هنا بالله ليس هو ذاك الذي يعلن عنه صراحة في بداية صيام

(١) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).
(٣) رواه البخاري (٤٧).
(٤) رواه البخاري (٢٨٥٣).

كل يوم من قول البعض علانيةً وجماعةً: نويت صيام غدٍ عن أداء فرض شهر رمضان لله تعالى!

ولا هو استحضار النية المجردة المعروفة إنما هي حالة إيمانية عامة تسطو على القلب بشكل مطلق وتسيطر على المشاعر والفكر في كل وقت فإذا ما حضر عمل من أعمال البر انبعث الإيمان من القلب من جديد وكأنه وُلِدَ أول مرة فانبعث بشكل مخصوص لهذا العمل .. انبعث قويًا ظاهرًا واضحًا محتسبًا ... طبعًا من غير تكلُّف ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾[القصص:٢٣-٢٤] هكذا تقدَّم سيدنا موسى عليه السلام وهو الهارب من فرعون وقومه، غير مبال بالجموع، ومن غير أي معرفة سابقة، ولا مصلحة مظنونة ولا واقعة .. هكذا هو الإيمان المقصود إذا حضر العمل، وهذا أعلى درجاته ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء:٥٧]، وقال سبحانه:﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠]، وهذه هي الحالة التي ربَّى اللهُ ﷻ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ في أول الأمر عليهما حتى استقرَّ احتسابهم واستحضرت عند كل الأحوال نيَّاتهم وإيمانهم واحتسابهم، عندها رفع الله عنهم التكليف به بعد أن أصبح ذاتيًا، وهذا في سورة البقرة كذلك؛ إذ جعل اللهُ هذا الأمرَ وتحقُّقه في نفوسهم مؤهلًا لنزول الكنزين من تحت عرش الرحمن وذلك في قوله سبحانه: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة:٢٨٤] وسبب النزول واضح وعظيم... وهكذا تكون ممارسة هذا النوع من الإيمان مدى الحياة وطوال الليل والنهار... فهو لا يريد إلا وجه اللهﷻ والأمر لا يمكن حدّه بحدٍ لكنها التقريب والمقاربة.

وهكذا صنع الله القدوة الحقة؛ قدوة في الظاهر، والباطن قبل ذلك... القدوة التي لا تريد وجه الوجوه إنما هي إرادة وجه الله ﷻ فيقول عنها سبحانه: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام:٧٩].

هذه هي القدوة القائمة على قلبٍ حاضر وإخلاص باطن وظاهر، وذلك على دوام الأعمال الصالحة وكثرتها وتنوعها..

نعم إن النية واحدة لله وحده لا شريك له إلا أن لكل نية طعمها ومذاقها ولذتها وحرارتها ونورها حسب الأعمال... إذ هي حديث النفس المؤمنة المتشوقة لإرضاء ربها سبحانه من خلال نوعية العمل الذي له تنبعث النية وبه تصطبغ.

رشفةٌ خامسةٌ:

مِن مَعين قولِهِ سبحانه: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾

إنها القدوة ولا قدوة بغير الوفاء بالعهد.. وليس الوفاء مرة أو مرتين بل الوفاء المطلق لكل ما عاهد عليه الرجالُ ربَّهم ما لم يكن حرامًا ولا مكروهًا وكما قال الله سبحانه في ختام آية البر: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقرة:١٧٧]، حتى يصبح الوفاء لهؤلاء اسمًا فكما يقال لهم: «المؤمنون» يقال لهم «الموفون»، وإن العجب ممن يغدر كيف يُمْكِنُ أن يطمع في أن يكون قدوة! بل العجب كيف يهدم الله سبحانه بنيان من لا يفي مهما جَمَّلَ بنيانه وزيَّنه بكل الأخلاق الأخرى! وكم يعاهد بعض المسلمين من معلمين ومربِّين ومشايخ وغيرهم طلابهم في عَرْض الحديث فلا يفي بما عاهد عليه عَرَضًا بينما حفظها الطالب ونسيها هو فيخلف ولم يأبه! وهكذا يتكرر الأمر.. فتسقط مصداقيته عند طلابه وما أصعب ذلك فيصبح لا يؤبه به بعد ذلك أوعد أو لم يعد ...! ولعل سرّ ذلك السقوط من أعين الخلق أن الله ﷻ قد كتبه عنده غدارًا أو خلوفًا...! ومن يُغَيِّر ما كتب الله! وقد قال النبي ﷺ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١)، وهكذا بقية المتخلقين بأخلاق السوء الحريصين عليها.

وإذا أعدت النظر في سورة البقرة كاملة تجد أن المنظومة الأخلاقية هنا مكتملة فهي تُكوِّن المؤمن والمؤمنة بالأخلاق التي يحبها الله ويرضاها، ولا صدام بين الجنسين مطلقًا، ولكلٍّ خصائصه الخَلْقية التي خلقه الله ﷻ عليها وما أعظم شرَّ الخلط بينهما، إلا أن الدور واحد في العمل الصالح كما قال الله سبحانه: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾**﴾ [النساء:١٢٤]، والجميع في تسابق في مرضاة الله ﷻ ويفترقان في بعض الأحكام المنصوصة المحدودة.

---

(١) رواه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

ثم إن سورة البقرة تُعَلِّم الرجولة لمن يحفظها، والقوة في الحق، والجد في الحياة، والإقدام على الخير، والصبر والتجلُّد .. أليس هذا هو دور الأنبياء عليهم السلام في السورة الكريمة وفي غيرها من السور الكريمة؟ وتُعَلِّمُه أن يكون مؤمنًا غيورًا سواءٌ كان رجلًا أو امرأة، وتعلِّمه أن يأخذ أحكام الله بجدٍّ، وما أكثرها وما أعظمها بركة في هذه السورة!

فكل ما نهى الله ﷻ عنه يحمل للمؤمن رسالة تقول: لا يسعك الرضا بما لا يرضى الله به، ولا بأصحابه لك أصحابًا وأحبابًا..! فانظر كم منكرٍ نهى الله عنه في السورة وكم من الناس من أنكر الله عليهم.!

وانظر كم موعظة في هذه السورة .. كم نصيحة جاءت في هذه السورة ..؟! انظر في كلمات الله ﷻ كم هي واضحة بَيِّنَة، كم هي قوية جدية عليّة، كم هي حازمة فاصلة ليست بالهزلية .. هكذا تنشأ شخصية حافظ سورة البقرة ورجولته الجديَّة المقدامة الوفيَّة ... هذا هو جوّها كما هو جوّ القرآن .. وهذا الجوّ هو الذي عاش به المؤمن والمؤمنة طوال فترة حفظهما ثم تعاهدهما القرآن ثم تهجدهما وحياتهما وإن لم يشعرا بذلك.

فأي غرس في جوِّها يصنع، وأي فسيلة في أرضها الطيبة تنبت، وأي ثمرة مباركة من شجرتها تنشأ.

إنها صبغة من كلمات الله تتحوَّل إلى حياة شخص هنا وهناك، رجلًا كان أو امرأة، لغير المسلمين كما هو للمؤمنين .. لكنه في الذروة من كل خلق لأنها هي سنام القرآن، ولهذا قال الله ﷻ عن أصحاب رسوله ﷺ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة:١٣٨-١٣٩].

إن شكر الله سبحانه على أن علَّمنا هذه الآية، وإن شكره على رشفة الشكر من هذه الآية هو أن نكون من أهلها حقًا وصدقًا .. وإلا فإن لم نكن كذلك فلا القلب

ارتشف، ولا المقام تغيَّر، ولا بلغ العبد البرّ ولم يكن من البررة؛ ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاًۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات: ١٤]، ولهذا تقدَّم الإيمان كل أعمال البرّ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقد بيَّنَّا بعض العمق الذي في هذا الابتداء، وبعض الخصوصية بـ ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ونوعية هذا الإيمان.

الارتشافُ الرابعُ:
مِن سورةِ البقرةِ: حَافِظُهَا صابرٌ مُحتسِب

أَوَلَمْ نسمعْ في سورةِ البقرةِ نفسِها ربَّنا وهو ﷻ يقول لنا تبعًا، ولأصحاب رسول الله ﷺ ابتداءً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣-١٥٧].

رشفة أولى: حافظ سورة البقرة صابر محتسب

مهما كانت الرحلة لحفظ سورة البقرة - طالت أم قصرت - فما هي بالرحلة التي يمكن أن تبلغ مرماها بغير الصبر، وليس ثبات حفظها بالأمر الذي يقبل التهاون، أو التراخي، أو تأخيره وتقديم غيره عليه من أمور الحياة... وهذا اشتراط لبقاء سورة البقرة معك.. وإن شئت قلت هذا شرط الصحبة إلى أن يأتيَ أحدَنا اليقينُ، وهذا النوع من الصبر اسمه التعاهد؛ وهو كما يكون لسورة البقرة فإنه للقرآن كله والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(١)، وزاد مسلم في روايته: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»(٢).

هكذا تُعَلِّم سورةُ البقرةِ مَن حَفِظَها وحافظ عليها الصبر حتى لو لم يتحدث الله ﷻ فيها عن الصبر بكلمة واحدة... فكيف وفيها ما فيها عن الصبر.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣١).

(٢) رواه مسلم (٧٨٩).

فالصبر على أنها أطول سورة في كتاب الله.. الصبر على حفظ آياتها التي تميزت بكثرتها فهي مائتان وستٌ وثمانون آية، والصبر على طول آياتها بالنسبة لعموم آيات السور الأخرى الكريمة.. فكيف وفيها أطول آية في القرآن...؟!

حقًا إنه لا شيء من هذا صعب وعسير، بل أصبح حفظها وتعاهدها أيسر ما يكون بتيسير الله له، وما كان كذلك قبل الابتداء به، ولذا انصرف العديد من الناس - من قبل - تهيُّبًا عند وقوفهم أمامها.

وهكذا أدَّبَ اللهُ ﷻ كلَّ من أَتَمَّ حِفظَ هذه السورة المباركة على الصبر عمليًا وعلمه المصابرة ليلًا ونهارًا، وعلمه الاصطبار في مقاومة التفلُّت الذي لا يدعه يهمل ما حفظ مطلقًا.

وهكذا أفرغ الله على قلب حافظ سورة البقرة من الصبر وثبت به قَدمه ما جعل الصبر له سلوكًا، وخُلقًا ملازمًا في حياته كلها ثم أذاقه ثمرة الصبر إذ وهبه الظفر بسنام القرآن، وعندها يصبح طعم الصبر المرّ ألذّ وأحلى من الشهد، ويصبح طعمه طعم الشكر لأن ما معه هو من أعظم معين الله عليه.

كيف وفي سورة البقرة البشائر للصابرين... فالصابر هو المبشَّر إذ هو مبتلى؛ فالناس في العادة ينظرون وسط البلاء فلا يرون إلا ظلمه مُدْلهِمَّة، ومصيبة محكمة الإغلاق وهو يرى البشرى فيها كما يرى الآخرون البلاء وحده...

فالصبر والمصابرة والاصطبار عهد يتخذه حافظ سورة البقرة وعهده عند الله دائمًا وأبدًا بالبشرى المتحققة، والفرج القريب، والأجر بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠]، والله ﷻ يقول في سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩]، وأي بشرى للصابر أعظم من البشرى بمعية الله - سبحانه -، والله - سبحانه - يقول في سورة آل عمران: ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران:١٤٦] وماذا بعد حب الله من غاية؟!

والصبر مفتوح على الآخر كما أن البلاء مفتوح حتى لو كان الاختبار على الروح .. ولقد ابتلى المؤمنون الأولون في أرواحهم وأنفسهم وأبنائهم وأرزاقهم أشد ما يكون الاختبار فصبروا وظفروا وانتصروا وغنموا ولهذا بقي هذا الدين لهذا اليوم.

والله ﷻ يحرِّضنا على الصبر في سورة البقرة حين يباهي بالصابرين خاصة جميع عباده عامة، فيقول سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧]، بل كرَّه هنا الله ﷻ العجلة وفقدان الصبر حين أرانا كيف يكون ذلك سببًا لانتزاع الإمامة من أمة جزوعة هلوعة مستعجلة فيمنح الإمامة لأمة صابرة عظيمة الصبر وهي أمتنا أمة محمد ﷺ.

أَوَلَمْ يحدِّثْنا الله ﷻ في سورة البقرة المباركة عمن فقدوا الصبر حتى أمام النعمة فقال سبحانه لهم مخاطبًا معاتبًا: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾[البقرة:٦١].

الله أكبر! ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾! هنا يهتف المؤمن ملبيًا ربه ﷻ: بلى والله نصبر على طعام واحد ونصبر على ثوب واحد، ونصبر على غرفة واحدة، ونصبر على كل شيء .. نصبر ونرضى ونستبشر .. كيف ووعد الله قائم، وثواب الله يصبُّ على الصابرين صبًا بغير حساب.

علمًا بأن الله ﷻ أنزل عليهم ما لذَّ وطاب من الطيبات وليس نوعًا واحدًا كالتمر مثلًا... ولهذا قال الله ﷻ: ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة:٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة:٥٧] فإن المَنَّ من

المِنَّة من رب العالمين، والسلوى التي طيباتها تُشْبِعُ وتُمْتِعُ وتُسْلِي القلب؛ لكنهم اختزلوا ذلك بقول: ﴿طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة:٦١] كل ذلك وطلبوا ما خبث من الطعام رائحة وذوقًا وطبعًا لأنهم مَنْ خبث من البشر ولهذا كان الجزاء الهبوط ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦١]... لكنهم - كما قال سيدهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه - قَوْمٌ بُهُتٌ (١).

فَصَبْر من حفظ سورة البقرة حاضر حتى عند الصدمة الأولى... وصَبْره لا يُلجئه إلى التولي... حتى وإن زُلْزِلَ الناس زلزالًا شديدًا فإنه سرعان ما يفيق ويفيء أشد ما يكون...

ويصبح حافظ سورة البقرة يزداد بكل موقف في الحياة صبرًا لأنه دائمُ العبرة والاعتبار، ولأنه حاضرُ الصبر والاصطبار، ولأنه طالبُ الأجر ومرضاة الله، وراجٍ الفرج والانتصار... وهكذا كانت عودة المؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ بعدما فوجئوا بالعدو يوم حنين أول المعركة فزلزلوا وتركوا مواقعهم .. لكنهم حين عادوا كانت القاضية على العدو... وما غربت الشمس إلا والغنائم والأسرى بين يدي رسول الله ﷺ قبل ذلك، لكن كان سرّ عودتهم وفيئتهم إنما هو: النداء بسورة البقرة عليهم «لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ حُنَيْنٍ نُودُوا: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَرَجَعُوا وَلَهُمْ خَنِينٌ يَعْنِي بُكَاءً»(٢).

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٣٣٢٩).

(٢) أخرجه أحمد ١٧٧٥، وابن حبان ٧٠٤٩. وصححه الألباني في المشكاة ٥٨٨٨.

رشفةٌ ثانيةٌ:

مِن مَعينِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾

قال ابن مسعود: البأساء: الفقر، والضرَّاء: السقم، وحين البأس: أي القتال[(١)].

هكذا هو العهد مع من حفظ سورة البقرة؛ فإنه صابر وهو في عمق الابتلاء والفقر، وفي غمرة الأمراض والأوجاع .. وليس صابرًا بلسانه، مُصبِّرًا غيرَه بموعظته فحسب، ذلك لأن الله سبحانه عبَّر عن ذلك بحرف ﴿فِي﴾ فهو وسط البؤس والبؤس قد لفَّهُ لفًّا وصبغ حاله كُلَّه، وهو غارق في الفقر من أعلاه إلى أخمص قدميه، ومع هذا فهو صابر محتسب لا يشعر به من لا يعرف داخله كما قال سبحانه في سورة البقرة كذلك: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٧٣].

﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ فما أشدّ بني إسرائيل قبل القتال، لكن كم تساقط من الجموع عند ابتداء الأمر والإذن بالجهاد، وعند ابتداء السير، ثم عند النهر، ثم عند خوض النهر وشرب الماء منه، وعندما برزوا لجالوت وجنوده فاستمرُّوا عند كل موقف يتساقطون حتى لم يكد يبقى مع نبيهم أحد .. وما قاتل معه إلا قليل وقد حفظنا في سورة البقرة هذه القصة المُعبِّرة العجيبة التي قال الله ﷻ في أولها: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة:٢٤٦]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن

(١) النكت والعيون للماوردي ج١ ص (٢٢٧).

شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

لذا حسم الله سبحانه استحقاق الصابرين في البأس إذ قال: ﴿وَحِينَ﴾.

وما أطولَ ألسنةَ المنافقين إذا ذهب الخوف وانهزم العدو ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب:١٨-٢٠].

الارتشافُ الخامسُ:
حافِظُ سورةِ البقرةِ عبدٌ شكور

قال ربنا سبحانه في سورة البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة:٧٤].

رشفةٌ أولى: أَبْشِرْ بِالتحاقِ سُورةِ آلِ عمرانَ بسُورةِ البقرة

إن أول درس يتلقاه حافظ سورة البقرة بعد تحقيقه بفضل الله هذا النجاح العظيم هو أن ينتقل مباشرة لنجاح آخر... ولا يكون ذلك إلا بشكر الله ﷻ ولا يكون الشكر بقول الحمد لله والشكر لله ولا بسجدة الشكر... فحسب – وكلها عظيمة – ولكن الشكر في أصله في القلب الشاكر... وهل من نعمة الله ﷻ على عبدٍ كان جوفه صفرًا فارغًا من كلام الله وهو كما قال النبي ﷺ: «**كَالبَيْتِ الخَرِبِ**»[1] واليوم أصبح عامرًا بسنام القرآن كله... بسورة البقرة كلها.

إن من الطبيعي أن يكون شكر نعمة حفظ سورة البقرة وتثبيتها هو الانتقال مباشرة بالابتداء بسورة آل عمران المجاورة لها، وإنه لحق الجوار، وإنه لجوار في الدنيا والآخرة، ولسورة آل عمران خصوصية من جهات عديدة مع سورة البقرة... لا أريد الإطالة بذكرها فليس هذا مقامها والله المستعان.

إلا أن المؤمن الذي منَّ الله ﷻ عليه بحفظ سورة البقرة وتمامها لَيَبْقَى مشفقًا بعدها أن يتوقف حفظه عندها ولا يضيف لسورة البقرة صاحبتها وهي سورة آل عمران، فَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ**

(١) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: حسن صحيح.

الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: **«كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ**(١)**، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ**(٢) **مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»**(٣).

لقد اصطحبت السورتان العظيمتان في مقدمة سور القرآن يوم القيامة، ثم اصطحبتا في العنوان فأصبح عنوانهما واحدًا فهما (الزهراوان)، واصطحبتا عمليًّا في الدنيا بالقراءة والحفظ في موضع واحد، وقد بينَّا أن المقصود به هو حفظهما وإلا كيف يجتمعان في صدر إنسان من غير حفظ، كيف يجتمعان لو بقيا في المصحف ولم يخصهما إنسان بأن يأخذهما من المصحف إلى صدره، ولهذا جاء في نفس الحديث «فإن أخذها»، ثم كيف تكون الصحبة إن رحل الرجل ولم تكونا في صدره في قبره، ويوم بعثه، وكيف تكون الزهراوان تزهران صدره ما لم يحفظهما في صدره، ثم انظر لهما في سماء أرض المحشر على صاحبهما كأنهما غمامتان، وأيُّ غمامتين مثلهما؟! وأين عناء القراءة والحفظ وما يتبعه من لزوم تعاهدهما ليلًا ونهارًا من مجرد القراءة من المصحف .. وإن كان هذا شأنًا عظيمًا.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ رَجُلٌ عِنْدَهُ الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، فَقَالَ: **«قَرَأْتَ سُورَتَيْنِ فِيهِمَا اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»**(٤).

بل إن الوحدة الموضوعية بين سورة البقرة وآل عمران تشمل كل شيء ... في أولها وآخرها وما بين ذلك، وحدة القوم الذين أهلكهم ولعنهم وغضب عليهم .. وذكر تسليم أمة محمد ﷺ الإمامة .. وختام السورتين بالنصر لهذه الأمة وإنه لقريب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) شرق: هو بفتح الراء وإسكانها أي: ضياء ونور.

(٢) الفرقان والحزقان معناهما واحد وهما قطيعان وجماعتان.

(٣) رواه مسلم (٨٠٥).

(٤) أخرجه الدارمي (٣٤٣٦)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد عيسى في كتابه الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن ص (٢٠٨): إسناده حسن.

فما دمتَ أيها الحافظ لسورة البقرة قد أتممت أخذها وأَصبحتْ الزهراء الكبرى منيرة في صدرك فاضمم لها الصاحبة الأخرى والزهراء الثانية ليجتمعا في صدرك كاجتماع فلقتي قلبك أو كإحاطة المشرق والمغرب لما بينهما... لترحل إلى قبرك يوم ترحل ثم حشرك وموعدك مع الزهراوين في كل موقف، أفلا تحتاج إلى مَن يُحَاجُّ عنك في دارٍ لا تعرف فيها شيئًا، ولم تمر فيها من قبل، ألم يقل النبي ﷺ: «**تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**».

وإن المرء بعد ما يَمُنُّ الله عليه بحفظ سورة البقرة ليبقى مُشْفِقًا وجِلًا أن يرحل بغير الزهراء الثانية سورة آل عمران... يخشى أن يرحل بفريق من الطير واحد، فهو يريد الجناح الآخر للمجموعة ليكون عليه فرقان، وتكون له غمامتان، ولـمَّا كانت غمامتين ولم تكن واحدة وكانتا فِرْقَيْنِ ولم يكن فِرْقًا واحدًا كان ثَمَّ من الإكرام بالانسجام والتناغم على شخص واحد ما لم يكن وصفه، ولا وصف نعيمه، ولا روحه وراحته، ولا أمنه وأمانه وسكينته... فما بالك بما يتنزل منهما على صاحبهما من هناء ونعيم وطيب وطيبات وخصوصية متفردة في أرض المحشر.. وما بالك بما ترسلانه من إشارات ظاهرة إلى أهل المحشر من فوقهم أن هذا الإكرام لحافظ الزهراوين هذا، فهل سيبقى واحدٌ في أرض المحشر لا يتمنَّى أن يكون هو صاحب الزهراوين إن لم يكن أخذهما .. حتى لو كان مسلمًا. وفي هذه الإشارات التي ترسلها الزهراوان على صاحبهما العجب ... وفي كل شيء العجب في الجمال والظلال والدلال والنعيم والبشائر والطيب والروحُ والريحان، والرضا، والسكينة وما إلى ذلك .. ثم إن هذين الفِرْقَيْنِ أو الغَمَامَتَيْنِ إنما هما الزهراوان أنفسهما .. لمن خصَّهما بالحفظ في قلبه في الدنيا ... وما هذا إلا بعض جزاء الله بهما فجزاؤها في ذاتها وما عند الله في دار الجزاء لم تسمع به أذن ولم تره عين، ولم يخطر على قلب بشر؟! عندها يعلمون كيف يعطي الله ﷻ على الزهراوين.. وعندها يَتَمَنَّى كل من لم يجمع بينهما أنه قد جمع. ومهما قلنا فإنه لا يمكن أن تعرف عظمة الغمامتين الكريمتين

المكرَّمتين، ولا فِرْقا الطير الصواف، ولا أعدادهما ولكن لابد أن يكون لهما علاقة بالسورتين من حيث الجزاء ونوعيته وكميته، فمثلًا من حيث العدد فإنه إذا كان الأمر كذلك فإن أمر العدد إما أن يكون على عدد آيات السورتين أو يكون على عدد أحرفهما، ومن عادة عطاء الله أن يكون على الأكبر ثم تكون بعده المضاعفات... ولا شك أن الأحرف أكثر، فإذا كان عدد أحرف سورة البقرة هو (٢٥٦١٣) وعدد أحرف سورة آل عمران هو (١٤٥٢٥) فاجمع الاثنين تعرف العدد.. ولم لا يكون الأمر كذلك فالرسول ﷺ بيَّن أن هذين هما الزهراوان أنفسهما، وليس هو الجزاء على حفظهما، فقال في الحديث السابق: «**فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» وهذا مجرد اجتهاد لبيان عظمة المكافأة على مشهد من أرض المحشر وما عند الله أعظم، والله أعلم.

ولهذا فنحن نقول: أبشر بحفظ أختها الزهراء الصغرى يا من حفظت سورة البقرة وهي الزهراء الكبرى.

فإن من شكر الله أن الذي تُلْهمه سنام القرآن بعد حِفْظِها أنها تفتح له الشهية إلى حفظ سورة آل عمران المباركة وتُسَهِّلها، وتُقَرِّب حفظها، وإنها والله لسهلة، فلقد تعدت الهمة التي أوقدَتْها سورة البقرة في نفس صاحبها إلى أن أصبح يتطلع لحفظ القرآن كله... فإن من ارتقى السنام وتمكن منه لم يصعب عليه النزول منه إلى ما دونه، - وليس في القرآن دون - أَوَلَمْ يُسَمِّها رسول الله ﷺ «**سنام القرآن**»؟!

أو لم يقل النبي ﷺ:«**فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ**»؟! وهل يمكن لأحد أن يُحَجِّر البركة أو يحصرها... فالبركة لابد أن تبارك ما حولها، وماذا حول سورة البقرة إلا بقية سور القرآن العظيم؟! وأول الجميع بعد البقرة سورة آل عمران، ثم إن النبي ﷺ قد بيَّن شرط حصول بركتها بقوله: «**فإن أخذها**» وإلا فإن البركة موجودة مبذولة لكن مَنْ يَتَقَدَّم من بين الناس ويأخذها، فأقبلت أنت أيها الحافظ حين أخذتها ووضعتها في موضعها الذي وضعه الله ﷻ في صدر رسول الله ﷺ: (إن أخذها بركة)، نعم إنها تؤخذ من المصاحف ولكن المصاحف لا تخلو منها... فهي إنما أُخذت من هناك، وحَلَّت

في المحل المبارك المتبارك الذي حَلَّت فيه من رسول اللهﷺ فتبارك صدره، وتبارك كل شيء من حوله، ولاتزال تلك البركة تفيض من صدره على الوجود كله مهما اتسع وكثرت الأمم والدول كأنها اليوم أنزلت، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١]، وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ [الأنعام:٩٢]، وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ [البقرة:٩٧].

رشفةٌ ثانيةٌ:أَبشِرْ فالقرآنُ كلُّه قادمٌ في الطريقِ الآمِنِ إلى صَدْرِكَ - بِإذنِ الله

ولا شك أن أول فيض البركة من سورة البقرة على صاحبها هي أن تجتذب مثيلاتها من سور القرآن المبارك إلى صدرك؛ سورة إثر سورة وآية إثر آية حتى التمام والكمال بختم القرآن... وبهذا يكون أعلى مقصود قد حصل والحمد لله رب العالمين.

وأنا حين أذكر حفظ سورة آل عمران بعد البقرة ثم حفظ القرآن لا أذكره من باب التدرج.. فأَنْعِم به والله من تدرجٍ خيرٍ وبركة.. ولا أذكره من باب أنه عهد يأخذه حافظ البقرة على نفسه... فلكل واحد شأنه في هذا الأمر لكني أذكره لأنها البركة وهذا طبع البركة، ولأن البقرة هي أعظم نور وأكبره فهي السورة الزهراء الأولى وطبع النور أن يشعّ ويزيح الظلام ويكتسح الأوهام ... فإذا بالصعاب سهلة، وإذا بالطرق معبَّدة، وإذا بالمسير يسير، وإذا بحفظ بقية القرآن رغبة نشأت في قلب من حفظ سورة البركة فكان حفظه لبقية سور القرآن أول عطاء الله على حفظ سورة البقرة ... وهل أعظم من هذا العطاء من عطاءٍ في كل مكتوب ومسموع ومحسوس في هذه الدار كلها؟!

وبما أنَّ الجزاء من جنس العمل فإن سورتي البقرة وآل عمران ما كانتا زهراوين في الآخرة إلا لأن الله سبحانه قد جعلهما زهراوين على صاحبهما وعلى الناس في دار الدنيا.

وهل يكون الإزهار والأَزهار عادة إلا في الربيع فمن الذي تقدم ربيع القلب أولًا في الإزهار والأزهار فاجتمع القرآن كله في القلب .... مَنْ إلا الزهراوان؟

وبأي شيء كنت تلحُّ بالدعاء في رحلة حفظ سورة البقرة أكثر من أن تجعل

«القرآن ربيع قلبك»؟! وأي دعاء أعظم من الدعاء؟! وأي حشد حَشَد له النبي ﷺ من أسماء الله الحسنى مثل ما حشد لهذا الدعاء ... فكانت الزهراوان مزهرتين في ربيع القلب فتنادت بقية آيات الله وكلماته واكتمل الربيع وتمّ، فلا تسأل عن ربيع الجنة لمن كان القرآن ربيع قلبه في الدنيا، ولا تسأل عن إزهار الآخرة لمن تقدم الزهراوان مسيرهُ في رحلة الآخرة. «**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»[(١)].

وأخيرًا فإن مجيء القرآن كلّه بعد حفظ سورة البقرة وآل عمران أمرٌ أشبه ما يكون بالمفروغ منه – بإذن الله – .... ولا تكاد تجد من حفظهما إلا وأقبل على حفظ القرآن كاملًا، كما أنهما الزهراوان في الدنيا، وفي الآخرة أعظم أليست البقرةُ وآلُ عمرانَ هما الزهراوينِ اللذينِ ينيران له الطريق لإقبال بقية سور القرآن الكريم إلى قلب حامل الزهراوين، فهذا التقدُّم هو ترتيب سور القرآن إذا جاءت آيات الله يوم القيامة يشير إلى بعض ما ذكرنا .... فالنبي ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ**»[(٢)].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

رشفةُ شكرٍ ثالثةٌ:
أَبْشِرْ باجتماعِ الخَيْرينِ فيكَ معًا

والشكر يتنوَّع ويتعدَّد إلا أن أول شكر يقدّمه من حفظوا سورة البقرة بعد تمام حفظها وإجازته بحفظها وإتقانها هو عهد كانت تحدِّثه نفسه به طوال طريق الدراسة والمدارسة والتحفيظ والتثبيت والتعاهد ... وهو حديث صدق تحدِّثه به نفسه .. وحديث يحدِّث به نفسه ويعاهدها، ويشهدها ويشهد الله عليها ... وهو يقول: يا رب لئن مكَّنتني من حفظ سورة البقرة لأُحَفِّظنَّها لآخرين .. ولئن أذقتني من هذا السنام فلأُطعمنَّه آخرين .. ولئن رفعتني لهذا المقام الأعلى لأرفعنَّ إليه الآخرين وذلك بفضلك ... وعند هذه النقطة ينطلق السباق الجديد إلى الله ﷻ ...

فماذا بعدما تمَّ الحفظ واكتمل، وتمَّ الإعداد وانتهى ... إلا أن ينفر المتلقِّي نفرةً كنفرة الجن الذين اهتدوا بالقرآن حين تمَّ سماعهم للقرآن فهبُّوا جميعًا إلى قومهم منذرين، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢]، وعلى هذا النوع من الشكر ينطلق سباق المعاهدين ربهم بل الشاكرين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٧]، فهذا وجد الأرض الأخصب له هي أسرته أهله الأقربون ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فيبتدئ مشروع عطاء سنام القرآن لغيره بعد أخذها الأول لنفسه؛ يبتدئ مع كل راغب من أهله بعد ما صنع هو فيهم الرغبة، وبيَّن لهم، ورغَّبهم، وقرَّبها لهم، وسهَّل حفظها عليهم، وأطار وساوس الشيطان من قلوبهم وتصوُّراتهم، وضرب لهم الأمثلة بمن حفظوا هذه الأيام ممن هم

أكبر منهم سنًا من رجال ونساء، وبيَّن شدة حاجتهم لحفظها وصحبتها وشفاعتها ونورها وبركتها وحمايتها لهم ولبيوتهم ومن يحبون وما يحبون ...

وابتدأ الحافظ المعلم الجديد ولو بواحد .. نعم ولو بطالبٍ واحد ... فبركة البقرة النابعة منها ... المجللة لأصحابها ومجلسها كفيلة بأن تجتذب الآخرين ... ومن يدري أي بذرة أعظم بركة .. وأي فسيلة أخصب والنبي ﷺ يقول: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ**[(١)]، **فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»[(٢)].

ثم هو ينتقل في اليوم نفسه أو في يوم آخر إلى صغار أهله فيجمعهم ليبدأ مشروعه معهم، فوالله إن مَنْ حفظ مِنَ الأبناء الصغار سورة البقرة فلن تجد منهم واحدًا يتخلف عن حفظ القرآن ما دام الله يرعاكم وما دُمت أنت - يا أيها الشيخ المبارك - في ذروة الصدق وحرقته فالله تعالى يقول: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٢٤]، وأنت حادي ركبهم وروحك ترفرف عليهم حبًا وإشفاقًا ودعاء ... تهتف بالله يا رب .. يا رب .. يا رب حتى تتم هذه الكوكبة مهمتها الأولى فتختم حفظ البقرة على الوفاء والتمام، عندها ترى بعينيك من يثلج الله به صدرك، وتقرّ به عينك، وتتذوَّق بنفسك ما يكون هو زادك على الثبات، ومُنْسيًا لك مرارة الصبر على طلابك كبارًا كانوا أو صغارًا، فإذا بهذه المرارة قد تحوَّلت اليوم شهدًا خالصًا .. ولبنًا سائغًا للشاربين .. وإذا بهذا الإنجاز أعظم طاقة لإنجاز أعظم وأعظم وهكذا طوال العمر. ويكون حالك مع الحافظين من طلابك كحال ذاك الولد الذي ما عرف بر الوالدين على الحقيقة إلا بعدما رُزِقَ هو بولد.

فاليوم أنت مَنْ يَمْنَحُ الإجازة كما مُنِحتها من قبل، واليوم أنت الشيخ بعد أن كنت المتعلم بالأمس، والنتيجة أنك اليوم قد حملت وسام الخيرية الخاصة لأبناء الأمة من طرفيها والتي قضى فيها رسول الله ﷺ بقوله: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[(٣)]،

(١) الفسيلة: النخلة الصغيرة تُقطَع من الأمّ أو تُقلع من الأرض فتُغرس، أو كُلُّ عُودٍ يُقْطَعُ مِنْ شَجَرَتِهِ فَيُغْرَسُ.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وأحمد في مسنده (١٢٩٨١)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٥٠٢٧).

ومع هذا المقام العظيم إلا أنك تبقى الوفي بعهده والوفي لشيخه الذي علَّمه وأجازه، والمركز الذي احتواه وشيخه المبارك الذي حفَّظه وعلَّمه ورعاه .. فالوفاء إرث، والوفاء برٌّ، وكيفما تكونوا لمعلميكم يكن لكم طلابكم ... وإذا لم يفِ أصحاب سورة البقرة فمن لمشايخهم ومساجدهم يفي ...؟!

أولم يعرِّفنا ﷻ كيف قطع دابر من قطع الوفاء لأهله، ونقض بنيان أمة لما نقضت عهد الله وعهدها مع خلقه، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة:٢٧].

فأنت إذ تلقيت ما تلقيت على شيخك بالأمس فإنه في اليوم الجديد أضاف على ما أعطاك الكثير، وهكذا هو في كل يوم ... فتكبر الفجوة عند القطيعة ويصعب ردمها أو وصلها، بينما حين تكون مواصلًا تكون حاضرًا وربما تكون مساهمًا في كل جديد كأنك أنت المركز ... وقد أويت إلى ركن شديد بإذن الله القوي العزيز.

وينطلق مجتهد آخر في فتح برنامج له على الشبكة العنكبوتية ليجمع من الطلاب من أرجاء الدنيا ما يستطيع ... وفق نظام سهل ومحكم، فإن زاد العدد عليه وعلى قدرته ووقته هرع إلى أن يجمع من صحبه ممن يعرفه شخصيًا، ويعرف قدرته وتمكُّنه، ليُدرِّس معهم، وهكذا يتسع الفتح ويتسع ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾ [البقرة:٢٤٧].

وحق هذه الرشفة أن نطيل فيها أضعاف أضعاف ما كتبناه هنا ولكنها رشفة، ثم ولله الحمد فإنني قد كتبت كتابًا متخصصًا في هذا الشأن بلغت عدد صفحاته أكثر من خمسمائة صفحة.

الارتشافُ السادسُ:
حمايةُ سورةِ البقرة

رشفةُ شكرٍ أُولى: حمايةُ عِلمِها وحَمْلُ أمانتِها

لقد كنت أحسب حتى قبيل ساعات من كتابة هذا العهد أني سوف أكتب هنا عن طلب العلم وضرورته كعهدٍ لحافظ سورة البقرة .... فالعلم هو الذي جعل ابن آدم في الأرض خليفة، ثم أي علم من العلوم لم يأت الله ﷻ به في سورة البقرة إما بذكر أصله بالإشارة وإما تفصيله بصريح العبارة ... حتى عِلْم السحر وأن السحر عِلْمٌ وأن السحر كفر ... فضلًا عن علوم الأحكام التي وردت في سورة البقرة، فكم ورد عن الصلاة، وعن صلاة الخوف وعن الزكاة وعن الإنفاق وعن البخل، وعن الحج وما يتعلَّق به، وعن الجهاد وما يتعلق به، وعن الصيام وتشريعه وأحكامه، وعن جميع الأخلاق تقريبًا وعن الحياة بمختلف مجالاتها، وعن الكبائر والموبقات وعن الربا والاقتصاد وعن الديون ... وغير ذلك بكثير، لكن ورغم ذلك كله فإنه لم يشدّني للحديث عنه كعهدٍ يأخذه حافظٌ على نفسه الآن ... لا أدري لماذا، ولكن لَعَلِّي لا أريد أن أستهلك عمر الحافظ فيما يشغله في هذه المرحلة عن التركيز على حفظه وحقِّ حفظه ... ولعلي لا أريد – كذلك – أن يدخل حافظ سورة البقرة إلى مدارس في العلوم مسخَّرة لمصالح بعيدة عن سورة البقرة وما أراده الله ﷻ ... والأخطر أن يُجَرَّ في نهاية الأمر إلى ذهاب سورة البقرة، وانقطاع الطريق وهو ما زال في منتصف القنطرة، والأخطر أن يصبح هو مَثَل السوء الذي ضربه الله ﷻ لمن آتاه آياته فقال – سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟

يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٧] وهل مصاب العلم اليوم إلا بأهله، وهل من أحدٍ يتخرَّج من الجامعات ومن المعاهد، والحلقات إلا وتتلقَّاه مدارس انتحار العلم إذ تحوِّل العلم إلى سلاح يَطْعن به نفسه ثم يطعن به أمته وإمامته.

ووالله إن الإعجاز ولا أقول العجب فحسب لمن نظر في سورة البقرة ونظر في آيات الله ومواضيعها كيف يجد أن الآيات لا تحض على طلب العلم كثيرًا كما نفهمه نحن اليوم ولا تخصُّ طلبه بشكل مطلق غير مقيد بالتقوى والتزكية وإعطائه حقه وإبلاغه والصدح به، بل يحذِّرنا ربنا سبحانه أعظم تحذير وأغلظه من ترك العمل بالعلم، وأكثر ما ورد في العلم هو تحذير الله سبحانه من تحويل العلم إلى سلاح ضد الحق؛ وكل ذلك من خلال القصص.

ولهذا فإن العهد الذي يأخذه حافظ سورة البقرة بنفسه على نفسه أن لا يذلَّ العلم الذي حصله ولا يذلّ نفسه، ولا ينقض ما حفظه أو يكفر بما مَنَّ الله عليه بأخذه سورة البقرة، ولا يخرج عن طريق حفظ القرآن مطلقًا... وإن طقطقوا وهرطقوا، وإن نقصوا ونَغَّصوا وانتقصوا....

فلقد أفسد قطَّاع الطرق بحر العلم وسمَّموه فما يكاد يخرج منها إلا مُتخرِّجًا مَسْمومًا مُسمِّمًا مُسمَّمًا... فكان الواجب هو الذهاب بعيدًا عن هذا البحر، والعودة إلى المنبع الصافي والأصل الأصيل وهو كتاب الله تعالى حفظًا أولًا وفهمه الفهم السهل اليسير الواضح من غير غبش ولا نظارات مُصَنَّعَة، والعودة إلى هدي الرسول ﷺ.

رشفةُ شكرٍ ثانية:
الْحَذَرُ مِن ذَهَابِ الإِزْهَار!

نقول - بإذن الله: قد أصابك من إزهار سورة البقرة والزهراوين ما أصابك بحفظها أو بحفظهما، ولكن لربما يذهب منه ما يذهب إن تخلَّيت ولمْ تُبلغْ ما آتاك الله، ولم تشكر نعمة الله عليك الشكر الذي يناسب هذه النعمة، وذهاب ذلك للمخالفة الصريحة لأمر النبي ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١)، فكيف بمن أخذ الآية ولم يبلغها إذ الأمة في أشد الحاجة لها؟! كيف والسورة أكبر نفعًا - في العادة - من الآية ... أليس قدر الخطأ في أمرٍ بقدر ذاك الأمر؟! فهل من قدر أرفع وأجمع وأشمل من سورة البقرة وهي السنام للقرآن؟! كيف بمن نَفَرَ ليتعلم فلما تعلم وعاد رقد ولم يبلغ؟! وربنا ﷻ يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢] ... لقد غضب الله على قوم ولعنهم وجعل قلوبهم غُلْفًا حين آتاهم عهده وآتاهم كلامه ثم نقضوا بعد ما علموا وأقرُّوا ... أولم يقل الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣]، وأؤكد ثانية إن إزهارك بالبقرة وآل عمران إنما هو أمرٌ عظيم لا يمكن تصوُّره في الدنيا فكيف بالآخرة ... ولكن أي إزهار عظيم سيكون لك حينما تكون أنت المشروع المطلق وأنت العبد الذي نذر نفسه لله وحده، مُحَرَّرًا لتبليغ سورة البقرة وآل عمران مدى الحياة .. فإذا حفظ القرآن أكمل وأصبح محررًا لهذا ... ولا أحسب وهذه هي النية .. وهذه هي الهمَّة والهويَّة ... وهذا هو الطريق إلا أن ينقلك الله في عالم كتابِهِ وكلامه الكريم، وكلماته نَقْلةً بكلماته لم تخطر على قلبك، وكانت فوق أحلامك.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

الرشفةُ الخاتِمَةُ:
التحذيرُ في سورةِ البقرةِ مِن الرشفةِ الخاطئة

يخطئ من يظن أن الوسوسة هي الفكرة يُلقيها الشيطان في قلب الإنسان، ولو كان الأمر مجرد إلقاء فكرة لهان الخطب، إلا أن خطورة الوسوسة تأتي بعد الفكرة الشيطانية من التصوير والتزوير والتقريب كي تتحرك نوازع الشر في النفس، حتى يبلغ أثرها أنها إن كانت شهوة فإن الشيطان أشد ما يكون حرصًا أن تنتشر في بدنه الشهوة، وتتحرك فعليًّا – نعوذ بالله منه –، وهكذا يرتشف الفكرة الأولى التي ألقاها أولًا ثم أسندها بكل المثيرات، فيشرب فيتشرَّب فيدمن على أي منكر من المنكرات. وسر الإدمان أن الشيطان أذاقه مرة ثم مرة ثم يتركه لا يحتاج منه إلا إلى إشارة .. وهذا الإدمان في كل معصية وليس في المخدرات والمسكرات وحدها.

إنها رشفة الشيطان التي يسقيها القلب فيشربها ويتشرَّبها وهو بها مغرور.

ولهذا فإن أسلوب الشيطان هو أن يأتي للقلب من حيث يحب وإلا صنع له ما يحب ولا يزال به حتى يشرب، أو يُطرد – بإذن الله –، والشيطان لا ييأس من ابن آدم وإن طال المدى .. فإن لم يستطع أن يسقي القلب حتى الثمالة فلا أقل من قطرة، أو شمَّة أو مجاورة وهكذا وهذا ما صنعه مع أبينا آدم عليه السلام فأزلَّه أولًا زلَّة ثم أخرجه من الجنة خروجًا كليًا كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة:٣٦]، وهو يسحب ابن آدم حتى يمشي معه وينطلق، وإلا فخطوة ثم تكون خطوات، كما قال الله ﷻ في سورة البقرة كذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة:١٦٨].

وكل تركيز الشيطان على القلب وإلا فهو ضعيف ... وهو يريد القلب ليخطو معه ثم

يشرب فيتشرَّب، فقال سبحانه:﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[النساء:١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الأنعام:٤٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠].

فإشراب القلوب هو الغاية التي يجري وراءها الشيطان ..

فلقد ذكر الله سبحانه عنهم وعن شربهم الكفر والشرك والنفاق والعصيان في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣]، فالعلماء يقولون في معنى ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أُشربوا حُبَّه.

ومن شدة حب قلوبهم الشرك فكأن قلوبهم تتسع وتتسع ولا تزال حتى تضم بين حناياها العجل ذاته، كما ذكر الله ﷻعنهم في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢]، ولذا فإن حافظ سورة البقرة ينبغي أن يُشْرَب حبها ويواصل قلبه رشفًا منها، فلا يصل إليه الشيطان بأي حيلة ولا بأي استدراج. لكن ثَمَّ كثير من العلوم ظهرت وتلوَّنت وتزيَّت بزيِّ شرع الله وما ذلك إلا من تزيين الشيطان لأصحابه؛ فمن ذلك ما يسمونه علم ما فوق الطاقة ونحوه من علوم وهذه كلها تدخل في قول الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ

رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾[الأنعام:١١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١٢١]، وحافظ القرآن يحذر أن يتوقف برجله أو يجلس على مقعد للشيطان في مجلس إنها زعامة الشيطان في أخطر المجامع ضد القرآن وسُنَّة رسول الله ﷺ، أو يشارك في مجمع للشيطان فيه مساهمة تشريع من دون الله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠]، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٣-٤]، وقال سبحانه: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج:١٢-١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[المجادلة:١٩]، وقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر:١٦].

إن من كان مع طالوت ممن شربوا من النهر لم يشربوا ويرتووا إلا بعدما أُشربوا في قلوبهم الهوان وخوف الموت عطشًا فأحبوا الماء حين حُرِّم عليهم إلا بغرفة يدٍ واحدة فسقطوا حين شربوا من النهر، فيا لخطورة التهاون برشفة الشر!

الحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
رشف من العنوان	٥
رشفة أولى: لماذا «الرشف» و«الشكر» معًا؟	٦
رشفة ثانية: وماذا تعنى رشفة؟!	٩
الفصل الأول: سبيل الارتشاف من كلام الله تبارك وتعالى	١٣
السبيل الأول: لابد من صبر القلب ومصابرته واصطباره عند البحور الباقية	١٥
السبيل الثاني: لابد من الإحساس المتيقِّن بتحقق الارتشاف من آيات الله تعالى	١٩
السبيل الثالث: لابد من معرفة صبغة كلام الله العامة	٢٦
الصبغة الأولى: صبغة الهداية	٢٦
الصبغة الثانية: صبغة الرحمة	٢٧
الصبغة الثالثة: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾	٢٧
الصبغة الرابعة: أن القرآن مبشر ومنذر	٢٨
السبيل الرابع: لابد من دخول ميدان رشف الشكر الأكبر وهو التهجد	٣١
﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾	٣٢
الفصل الثاني: التدريب على ارتشاف الشكر عمليًّا من سورة البقرة	٤١
الارتشاف الأول: تقوى الله ﷻ	٤١
رشفة أولى: فلكأن عنوان السورة هو التقوى	٤١
رشفة ثانية: لزوم التقوى في الحياة كلها	٤٣
رشفة ثالثة: التقوى غاية العبادات وثمرتها	٤٤
رشفة رابعة: التقوى من الشهوة حتى القصاص وما بينهما	٤٦

الموضوع **الصفحة**

الارتشاف الثاني: رشفة الخشوع في الصلاة..... ٤٨
رشفة أولى:العين الساقية للخشوع﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾..... ٥٤
رشفة ثانية: ما علاقة الرشفة بالخشوع؟..... ٦١
الارتشاف الثالث: صاحب سورة البقرة من البررة..... ٦٧
رشفة أولى: آية البِرِّ وما أدراك ما آية البِرِّ؟..... ٦٧
رشفة ثانية: المرتشف من هذه الآية سابق أقرانه..... ٦٨
رشفة ثالثة: من معين قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.. ٧٠
رشفة رابعة: من معين قوله سبحانه:﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾..... ٧١
رشفة خامسة: من معين قوله سبحانه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾..... ٧٤
الارتشاف الرابع من سورة البقرة: حافظها صابر محتسب..... ٧٧
رشفة أولى: حافظ سورة البقرة صابر محتسب..... ٧٧
رشفة ثانية: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾..... ٨١
الارتشاف الخامس: حافظ سورة البقرة عبد شكور..... ٨٣
رشفة أولى: أبشر بالتحاق سورة آل عمران بسورة البقرة..... ٨٣
رشفة ثانية: أبشر فالقرآن كله قادم في الطريق الآمن إلى صدرك بإذن الله..... ٨٨
رشفة شكر ثالثة:أبشر باجتماع الخَيْرين فيك جميعًا..... ٩٠
الارتشاف السادس: حماية سورة البقرة..... ٩٣
رشفة شكر أولى: حماية علمها وحمل أمانتها..... ٩٣
رشفة شكر ثانية: الحذر من ذهاب الإزهار..... ٩٥
الرشفة الخاتمة: التحذير في سورة البقرة من الرشفة الخاطئة..... ٩٦
فهرس الموضوعات..... ٩٩